ج. د. سالنجر

اليوم المرتجى لسمك الموز



ترجمة
بسام حجار

الفارابي

اليومُ المرتجى لسمكِ الموز

ج . د . سَالنجر

اليومُ المرتجى لسِمكِ الموز

ترجمة
بسّام حجّار

الكتاب: اليوم المرتجى لسمك الموز

التأليف: ج. د. سالنجر

الترجمة: بسّام حجّار

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان
ص.ب. ١١/٣١٨١ – ت: ٣٠١٤٦١ – فاكس: ٠٧٧٧٥

التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة: الأولى ١٩٩٧

مقدمـــــة

ســـالنجـــر

هَــذْرُ خـــاســـرين أنقيـــاء

ج . د. سالنجر من طينة الكتّاب الّذين حين تلتقي بهم مرّة واحدة، عمداً أو بمحض المصادفة ، كأن تقرأ له قصة واحدة أو صفحات من كتاب، لا يعودون الى مطارحهم ، على رفة في مكتبة ، أو هوامش في دفتر ملاحظات أو عبارات وشخصيّات تذكر منها أشياء كلما قرأت أو كتبت أو تحدّثت . سالنجر لا يترك لك مثل هذه الفرصة ، وإن حاولت لا تلبث أن تجد كتابه في متناول اليد ، على طاولتك أو قرب سريرك ، أو بين الأوراق التي تنقلها مرّة أو مرّتين في الأسبوع ، ساهماً في سيارة الأجرة ، أو منتبهاً لسطور تعيد قراءتها مرّات ومرّات . سالنجر من طينة الكتّاب الّذين حين تكون قرأت لهم ، لا تعود كما كنت في السابق ، أقصد لا تعود تقرأ كما كنت تقرأ في السابق ، لأنه ، في أية حال ، من الأطياف التي تترك أثراً مقلقاً . تقرأ له شيئاً وحين تأخذك متعة قراءته حتى النهاية تبحث عن أعماله (القليلة) الأخرى . تجدها (منقولة الى الفرنسية) بعد جهد ، وتعرف حين تواصل القراءة أنّك وقعت في شرك سالنجر ، وأنّك بعده ، لن تكون كما كنت في السابق ، أقصد بعد ، أن تكون تعرّفت على "هولدن كولفيلد " بطل " الحارس في حقل الشوفان "، أو " سيمور " بطل

"اليوم المرتجى لسمك الموز "* ، أو فرانكلين وجيني بطلي " مباشرة قبل الحرب مع الإسكيمو "، أو غيرهم ... فهؤلاء ينبضون حياة كانت تحسب أنّها الى الأبد خارج الرّواية ، والى الأبد خارح الأدب . إذ لا تحدس ، أنت القارئ، برشاقة أن يستدرج سالنجر كل هذا النبض الى الكتابة وبأن أدب المشاعر الجميلة كما أراد أندريه جيد ليس " القاصر " الذي تحدّث عنه النقد طويلاً . كأنّك ، أنت القارئ ، إذن على أرض غير ثابتة ، تكون مطمئناً ويأتي سالنجر ذات يوم ويقول لك هذه رواية ، أو هذه قصّة ، وإنها بالاقتصاد الكبير لرسم الإطار والمتن ، تسترسل بالهذر الذي يتداوله أشخاص غالباً ما يجدون صعوبة في الإهتداء الى " العبارة " المناسبة ، لذلك يداورون ويناورون في الكلام ، حتى لا يكاد الكلام ينتهي ، ولا يقولون في النهاية إلا القليل ، والقارئ يحدس بما لا يقال لأنّه في هوامش الانقطاع والتأتأة والارتباك ولا يقرأ في المتن . ولمن لم يقرأ سالنجر بعد ، نقول معتذرين إنّنا لن نستطيع أن نلخّص بكلمات قليلة أو كثيرة رواية له أو قصّة ، لأنّه ببساطة مستحيل. فما تقوله القصّة أو الرّواية ليس ما يرد في متنها (وهو كثير) بل هو في الجوهر ما هو " مكتوم " في متنها . فما يحدث في قصص سالنجر لا يخضع لمنطق ما تعيه الشخصيات عبر الكلام

(*) " تسع قصص " (١٩٥٣ للطبعة الأميركية) ، صدرت بالفرنسية بعنوان :" اليوم المرتجى لسمك الموز " في ترجمة لجان ـ باتيست روسي عن منشورات لافون ١٩٦١ . أما رواية " The Catcher in the Rrye" (١٩٥٢ للطبعة الأميركية) . فقد صدرت في منشورات لافون عام ١٩٥٣ في ترجمة لجان ـ باتيست روسي أيضاً ، وكان الروائي الراحل غالب هلسا ترجمها الى العربيّة (طبعة من دون تاريخ) بعنوان : "الحارس في حقل الشوفان ".

الذي تقوله ، ولا لتدخّل الكـاتب ، ولـو مـرّة واحـدة ، شـارحاً أو مفسّـراً أو معلّقـاً أو محلّـلاً ، بـل يحـدث أن تسترسـل الشـخصيات بحـوار متواصـل لاينقطع تشعُّبه واستدراكه وسوء الفهم المتبادل والمتكرر بين المتخاطبين ، دون أن يصـل الحـوار بهـم الـى أي معنـى أو مكـان ، ولكـن القـارئ ، فـي المقابل ، يهتدي الى الخيط الذي يشبك نسيج العلاقات النفسيّة المعقّدة والتـي لا تـهتدي إليها الشخصيات بـالضرورة، فمـا يجعـل مـن سـالنجر " سـاحراً " للنوع يكمن ، بالضبط ، في قدرته على تتبع الأشياء التي لم تجد شـكلاً لهـا بعد ، لا عبر مايصرّح به النص ، بل عبر ما يكتمه من غير قصد .

أشخاص سالنجر حـاضرون دائمـاً ، حتـى الأمـوات منهـم ، عبـر اللغة التي تطول إليها شـبهة فـي كتابتـه . فاللغـة التـي تسـتخدم للتواصـل ، والاتصـال ، لا تبـدو كذلـك حيـن يسـتخدمها سـالنجر. وكمـا أسـلفنا القـول ، شخصيات سالنجر كثيرة الكلام ، ثرثارة ، وحين تتكلّم ، يقول جان ـ لـوي كورتيس ، لا تفعل ذلك كما في المسـرح أو فـي روايـات " التحليـل " علـى الطريقـة الفرنسـية ، حيـث تختـار الشـخصيات العبـارة الصحيحـة التـي لا يخونـها المعنى أو كمال التعبير ، بـل علـى العكس ، غالبـاً مـا يكـون بطـل سالنجر عاجزاً عن العبارة الصحيحة ويحسب دائماً أنّ ما يقوله لا يفي بمـا يشعر به فعلاً ، لذلك يكرّر كلامه ويغمغم ويسعى جاهداً (والقارئ يتابعـه) لإيجاد الكلام المناسـب لكنـه غالبـاً يخفـق فـي مسـعاه . لذلـك لا يكـاد يخلـو موقف من المواقف أو حوار مـن الحـوارات مـن غرابـة مـا أو مـن مسـحة سذاجة توصلها اللغة المحكية التي يستخدمها سالنجر الـى ذرواتهـا؛ فـالحسّ المذهل الذي يتمتّع به سـالنجر حسّ التقـاط المسـموع ، والإيقـاع والوتـيرة

والنبرة ، إضافة الى خصوصيات اختلاف اللغة المحكية ، محطّات الكلام التي تتردّد ، والعادات واستخدام اللفظ أحياناً في غير محنه .

لا يبالي سالنجر كثيراً " بمَوْضَعَةِ " الأشخاص ، أو كما يقال في المتعارف عليه ، برسم الإطار . فالديكورات والأمكنة مقتضبة ، وسالنجر لا يلتفت كثيراً الى ترتيب أجزائها أو وصفها . إذ تمثّل الشخصيات منذ البداية ، تكون هنا وتبدأ بالكلام ، ومع تشعُّب الحوار تكتسب الشخصيات حضوراً وخصائص وصفات ، لأنّ سالنجر لا يروي سوى " الآني " والراهن ، وإذا ما عمد الى صيغة الماضي (في طبيعة الأفعال) فإنّ الأحداث تجري في الحاضر . فزمن السرد لا يني يتطابق مع زمن الحدث حتى لو كانت صيغته تتلبّس زمن الماضي . ورأى بعض النقّاد في أسلوبيّة سالنجر استكمالاً لجماليات الرّواية الأميركية التي تتبنى ، منذ همنغواي، والى حد بعيد معايير " السلوكية " (Behaviorisme) ومنطقها حيث يسعى الكاتب لأن يغيب تماماً خلف المتن الذي يكتبه . إلا أنّ معايير "الموضوعية" هذه ليست عند سالنجر إلا على المستوى الشكلي . وما ينطبق ، بهذا المعنى ، على " تيّار " الرّواية الجديدة ، في فرنسا ، من حيث " موضوعيّة العين الرّائية وحيادها " (بوتور ، روب ـ غرييه) لا ينطبق على كتابة سالنجر التي في حيادها " السلوكيّ " على مستوى الشكل لا تغفل أيّاً من مكونات الذات الانفعاليّة والعاطفيّة .

ولكن ، في غمرة كل هذا التناول الاسلوبي لسالنجر قد يخطر للقارئ أن يبدي فضولاً ما للسؤال عن سالنجر الإنسان . فمن هو هذا الغائب عن الأضواء ، حتى قبل أن يتوقّف عن الكتابة . هنا أيضاً تغرق حياة الكاتب في التفاصيل غير المؤكّدة ، وغير الصّحيحة أحياناً . كل ما

يُعرف عنه أنّه ولد في نيويورك عام ١٩١٩ (أي أنّه في الثامنة والسبعين اليوم) وأنّه تابع دراسته الأولى في إحدى الأكاديميات العسكريّة ثم تردّد الى ثلاث مدارس مختلفة في صباه وأنّه خدم في الجيش بين عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٦ ، وأنّه بدأ ينشر قصصه القصيرة في " النيويوركر " والـ "هاربرماغازين "، وانّ روايته " الحارس في حقل الشوفان " صدرت عام ١٩٤٨ واختيرت كتاب الشهر في " البوك أوف ذو مانث كلوب " (نادي كتاب الشهر) ، وأنّها سرعان ما أصبحت الرّواية الأكثر مبيعاً إلى جانب "هوكليبري فين ".

ما يكتب عنه سالنجر يدور ، مهما تنوّع ، حول الطفولة والمراهقة ، وليس اختياره هذا لأنّه استطاع أن يجعل الأطفال والمراهقين يتكلمون بلغتهم ، بل ربّما لأنّه يرى في هاتين المرحلتين التعبير الصارخ عن حالة من النُعمى هي أقرب الى المفهوم الديني .

فالانتقال من المراهقة الى سنّ البلوغ يترافق فيما يراه سالنجر مع حالة من الخسارة والفقدان للقيمة الأخلاقيّة التي لا تمثّلها لا البراءة ولا الرقّة ولا السذاجة ، بل " الدقّة " التي سيوصي بها ناثانئيل على لسان بول فاليري . وقد يكون محض استسهال القول بـ " فراديس الطفولة الضائعة " عند سالنجر ، لأنّها وإن كان مقلب هذه الفراديس ، ليس الجحيم ، بل مطهره القريب ، لا تمثّل سوى الحيّز " الروحاني " الذي يطرد منه المرء على عتبة سنّ البلوغ . فالبالغ لا يفقد فقط مفاتيح هذا الحيّز ، بل يفقد أيضاً " اللغة " التي تعينه على الدقّة وعدم الامتثال لما هو "واقع " وناجز .

الأشدّ قسوة في ما كتبه سالنجر هو العالم الذي يخلو من أطفال ومراهقين كما في قصّة :" جميلٌ فمي عيناي خضراوان ". أمّا القسوة التي

يواجه بها العالم " كائنات " سالنجر فتبدو أقرب الى " اختبار " حالة النقاء التي تتمتّع بها . فالأحداث ، غير الممتثلين ، يجتازون اختبار القسوة لأنّهم يرفضون ، حتى النهاية ، الانخراط في مثال العيش الآني ومعياره . هولدن كولفيلد أو فرانكلين أو قائد ثلّة الكشّافة أو غيرهم يجدون دائماً الهوامش الضيّقة التي تتسع لهم خارج عالم " الآخرين " الراعب . عالم الحرب التي وقعت والحرب التي قد تقع ، عالم المدرسة والمصنع والمرض والإعاقة ، عالم الفقر . أما " ألفرد " الذي لا يسهل عليه هذا الانتقال دون " جروح رمزيّة " بالغة ، فهو الذي يبقى ، كسيمور ، في حالة مزدوجة : الرجل ــ الطفل الذي يرفض الامتثال فلا ينخرط في الدائرة ، فيصبح موضوع سوء فهم متواصلاً أي ، ما تسمّيه الصيافة الحديثة ، يصبح في عداد غير الأسوياء والمرضى . لذلك ينتحر " سيمور " (في إحدى قصص مجموعة سالنجر وهي بعنوان :" اليوم المرتجى لسمك الموز ").

جانب المرارة في كتابة سالنجر (أليست وجهاً من سخريته اللاذعة ؟) يضاهي جوانب أخرى لا تملك أن تدع القارئ ، بعد القراءة ، كما كان في السابق . والذكاء الكبير قد يكون سِمَة أخرى ، ولكنّها الى جانب الرقّة والضّحك ورعشة الرعب والإشفاق ، تصنع " الحنان " الغامر الذي في كتابة سالنجر .

كان نورمان مايلر ، الروائي الأميركي ، يصف سالنجر بأنّه "الروح العظيمة التي ظلّت على مستوى المدرسة الثانويّة ... وأجد صعوبة أن أتخيّل سالنجر يخوض معركة الرّواية الراشدة الحقيقيّة ". لم ير كاتب "أنشودة الجلاّد " و " العراة والموتى " سوى حرفيّة السطور في " الحارس في حقل الشوفان " ، ولم يسمع في الحوار المتواصل لأحداث الخمسينات

سوى رتابة " غير راشدة " . ولكن سالنجر في مكان آخر ، من مكان آخر ، نكاد نقول . وقد لا يعجب القارئ أن يرى في بعض نورمان مايلر شيئاً من الروائي " غير الراشد " الذي ، منذ ٢٥ سنة ، مال الى صمت أراد أن يكون نهائياً ، فتوقّف " الهذر " الذي بات قارئ الرّواية يبحث عنه الآن بشيء ، بل بكثير من الحنين .

المترجـــم

" نعرف الصّوت الذي تحدثه يدان تصفّقان
ولكن ما هو الصّوت الذي تحدثه يدٌ
واحدة تصفّق؟"

أ . زن كوان .

جميـــل فمـــي عينـــاي خضـــراوان

عندمـا رنّ جـرس الهـاتف ، سـأل الرّجـل ذو الشّــعر الرّمــادي ، بشيء مـن الجفـاء ، المـرأة الشـابة عمّـا إذا كـانت تمـانع فـي أن يـردّ علـى الهاتف. سمعته المـرأة الشـابة وكأنّـه يُخاطبُهـا من بعيـد . وأدارت وجههـا نحوه ، كانت إحدى عينيها مغمضة ـ تلك التي كـانت مـن جهـة الضـوء ـ والأخـرى جاحظـة ، بغير دهشـة ، عميقـة الزرقـة حتـى أنّهـا لتبـدو بلــون بنفسجي . قال لهـا الرّجـل ذو الشّعر الرّمـادي أن تُسـرع قليـلاً . فنهضـت متكئة على مرفقها الأيمن وبما يكفـي مـن العجلـة فـلا يبدو أنّهـا بَرِمـةٌ بمـا تفعل. رفعت شعرها عن جبينها باليد اليسرى وقالت إنّهـا ، بحـقّ السـماء ، لا تدري ماذا تقول .

ـ ما رأيك أنت ؟

قال الرّجل ذو الشّعر الرّمادي إنّه ، تبّاً، في كلتا الحالتين لن يكون الفارقُ مهماً ، ودسّ بيده اليسرى تحت ذراع المرأة الشـابة ، فـوق المرفـق الذي كانت تتكئ عليه . ثم صعدت أصابعه باحثـةً عـن ملمـس دافـئ تحـت الإبط . تناول سـمّاعة الهـاتف بـاليد اليمنـى . وكـي تصـل اليـه يـده أنهـض جذعه قليلاً فلامس رأسُه كمّة المصباح . لهنيهـة شعشـع نـورُ المصبـاح ـ وبشيء من الخيلاء ـ شعرَه الرّمادي الذي يكاد يكون أبيض . وبرغم شعثه الخفيف في تلك اللحظة فإنّه يبدو بوضوح أنّه مرّ بصالون المزيّن منذ وقت غير بعيد . كان المزيّن جعله قصيراً جداً عنـد الرّقبـة والصدغيـن وأطـول عند الهامـة والجـانبين : قَصّـة كلاسيكيّة أُضيفـت إليهـا اللمسـة الخاصـة "بالرجال المميّزين ".

ـ آلـو ؟ قال بصوت رخيم .

كانت المرأة التي لا تزال متّكئةً على مرفقها تنظرُ إليه . وعيناها المحملقتان لا تشوبهما شبهة قلق أو شرود ، إذ كانتا لا تعكسان سوى لونهما.

سُمع صوت الرّجل عبر السّماعة ، صوت بارد ومحايد ، نبرته سوقيّة وقد تكون فاضحة ، صوت وكأنّه مستعارٌ للمزاح :

ـ هذا أنت يا لي ؟ هل أيقظتك ؟

تبادل الرّجلُ ذو الشّعر الرّماديّ والمرأة الشابّة نظرات عاجلة .

ـ مَنْ المتكلّم ؟ قال ، هل هذا أنت يا آرثر ؟

ـ أجل ... هل أيقظتك ؟

ـ لا ، لا كنتُ مستلقياً ، كنتُ أقرأ ، هل ثمّة خطب ؟

ـ هل أنت متأكّد بأنني لم أوقظك ؟ كلام شرف ؟

ـ لا ، لا ، أبداً ، قال الرجل ذو الشّعر الرّماديّ . أكون صريحاً معك لا أستطيع أن أنام أكثر من أربع ساعات في ...

ـ أتّصل بك لأسألك إذا كنت انتبهت في أيّ ساعة غادرت جواني؟ أو لاحظت أنّها ربّما غادرت في رفقة آل إلّنبوغن . هلاّ قلت لي ؟

إلتفت الرّجل ذو الشّعر الرّمادي مرّة أخرى جانباً غير أنّ نظرته هذه المرّة كانت أعلى ، أعلى بكثير من وجه المرأة الشابة التي كانت تحدّق فيه بزرقة عيني شرطي إيرلندي يافع .

ـ لا ، لم أنتبه ، يا أرثر .

كانت عيناه تحدّقان في أعالي الغرفة المعتمة عند ملتقى الجدار بالسقف :

ـ إذن هي لم تغادر معك ؟ أردف قائلاً .

ـ لا ، بحقّ السماء ، لا. ألم تلمحها وهي تغادر إذن ؟

ـ الحقيقة ، لا ، أقول لك صراحةً إنني لم أنتبه يا أرثر ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . وبصراحة أكبر أقول لك إنني في الواقع لم أنتبه لشيء طوال الأمسية . فما أنْ دخلت من الباب حتى انخرطت في نقاش ممل لا ينتهي مع هذا الفرنسي الغريب ، أو النمساوي أو ما لست أدري ما هو ، فما من دخيل ، من طراز هؤلاء ، إلا ويكون متربّصاً بأصغر الاجتماعات الحقوقيّة ، شريطة أن يكون مجّانياً . ولكن لماذا تسأل؟ ما الذي حدث ؟ هل اختفت جواني ؟

ـ أوه ، يا إلهي ، ومن أين لي أن أعرف ؟ لا أعرف شيئاً . أنت تعرفها جيداً حين تركب رأسها . لا أعرف . ربما لم تفعل سوى أنّها ...

ـ هل اتصلت بآل ألّنبوغن ؟ سأل الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

ـ أجل . لم يعودوا الى المنزل بعد . ما عدت أفهم شيئاً . والله ، لست متأكداً حتى أنّها انسحبت من الأمسية في رفقتهم . ولا أعرف سوى أمر وحيد . تبّاً ، أعرف هذا الأمر جيداً ، إنني ضجرتُ من وجع الرأس هذا . ولستُ مازحاً . هذه المرّة لا أمزح : لقد ضجرت . خمس سنوات ، يا إلهي !

ـ هيّا ، حاول أن تواجه هذا الأمر بشيء من الهدوء يا أرثر ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّمادي . أولاً أنا أعرف جيداً آل ألّنبوغن، وهناك ألف احتمال أن يكونوا قد استقلوا سيارة أجرة وتوقفوا للحظات في البلدة . وعلى الأرجح سيصلون بين لحظة وأخرى ...

ـ ينتابني أحساسٌ بأنّها قد ذهبت لتعتني بوغدٍ في المطبخ . لديّ إحساس قويٌّ بذلك . عندما تكون مهتاجة تنط على أوّل وغد يدخل الى

المطبخ . لقد ضاق صدري . والله ، أقسم لك ، أنا لا أمزح . خمس شرا...

ـ أين أنت الآن يا أرثر ؟ سأل الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . في البيت ؟

ـ أجل ، في البيت . في البيت الزّوجي الحنون . يا ألله !

ـ إسمع ، لا ينبغي أن تتصرّف مثل ... ما الأمر؟ هل أنت ثملٌ أو ماذا ؟

ـ لست أدري . لتبتلعني جهنّم لو كنت أدري !

ـ حسناً . والآن إسمع : إلزم الهدوء ! قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . أنت تعرف آل ألنبوغن جيداً ، بحقّ السماء ! كل ما في الأمر أنّه قد يكون فاتهم موعد آخر قطار . وسيصلون ، ثلاثتهم ، بعد دقيقة ، جذلين مثل عصافير البرقش ، بعد استراحةٍ في ...

ـ كانوا في سيارتهم .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ من فم الفتاة حاضنة الأولاد ، لقد خضنا أحاديث هادئة ولكنّها ، في الداخل ، تزبد وترعد . وكانت رفقتنا رفقة خنازير . نحن حبّتا ثوم لعينتان في قرن واحد .

ـ حسناً ، حسناً . وفي النهاية ؟ قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . ألا تستطيع أن تهدأ قليلاً الآن ، وأن تحافظ على هدوئك ؟ سوف يصلون حتى قبل أن تنتبه . ثق بي . أنت تعرف ليونا . أليس كذلك ؟ الشيطان وحده يعرف لماذا يعودون دائماً من نيويورك والمزاح على طريقة كونكتيكت ملء حقائبهما . أنت تعلم ، أليس كذلك ؟

ـ بلى . أعلم ، أعلم ... في النهاية ما عدت أعلم شيئاً .

ـ بلى ، أنت تعلم ، فكّر قليلاً . لا بدّ أنّهما غصبا جواني على الركوب معهما قبل أن ...

ـ إسمع لا أحد يستطيع أن يغصب جواني على شيء ! فلا تحش قصبتي بترهات الغصب هذه !

ـ لا أحد يحشو قصبتك يا أرثر ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ بهدوء .

ـ أعلم ، أعلم ! أعذرني ، يا إلهي بتّ فاقد السيطرة على أعصابي ، كلام شرف ، أتقسم لي أني لم أوقظك من النوم ؟

ـ لو أنّك فعلت لكنت صارحتك بالأمر يا أرثر . قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

وسحب يده اليسرى من تحت إيط المرأة الشّابة .

ـ إسمع يا أرثر ، هل تقبل نصيحة ؟

أمسك بين أصابعه شريط الهاتف تحت السّماعة مباشرةً.

ـ بجد . هل تقبل نصيحة ؟

ـ أجل . ما عدت أعلم . بحقّ السماء ، أنا الآن أمنعك من النوم . أسأل نفسي لماذا ببساطة لا أقطع ...

ـ إسمعني للحظة ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّمادي . بجد . ستذهب الآن طائعاً الى سريرك وتتمالك نفسك . أسكب لك كأساً أخيرة واندس تحت الأ ...

ـ كأس أخرى ! أتمازحني أم ماذا ؟ ولكن بحق السماء اللعينة لقد أفرغت ليتراً كاملاً في الساعتين هاتين ! كأس أخرى ! أشعرُ بتصلّب أعضائي حتى لأعجز عن ...

ـ حسناً ، حسناً . إذن إذهب ونم ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ. وحافظ على هدوئك ، هل تسمعني ؟ في النهاية يجب أن تعترف أنّ لا جدوى من لفّك ودورانك وأنت في حالة قلق مماثلة ؟

ـ أجل ، أعلم . ماذا يُجدي كل هذا ، يا إلهي . ولكن لا يمكن الوثوق بها . لا يمكن! أقسم لك ! ما عدت أستطيع الوثوق بها حين لا تكون في متناول ... لا أعرفُ ماذا . أووه ، ثمّ ما الفائدة ! إني أفقد السيطرة كلياً على أعصابي .

ـ إسمع ، أنس كل هذا الآن ، لا تفكّر فيه . قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . وكَرْمى لي حاول أن تطرد كل هذا من رأسك . أنت تعرف جيداً أنّك الآن تسبب لنفسك بـ ... أعتقد بجدّ أنّك تحمّل نفسك جبلاً ...

ـ ما أفعله ؟ أنت تعلم ماذا أفعل ؟ أشفق على نفسي من أن أقول لك ، هل تعلم أيّة رغبة لعينة تتملكني حين أعود الى المنزل كل مساء ، عندما أعود ؟ هل تود أن تعلم ؟

ـ إسمع يا أرثر ، هذه ليست ...

ـ إسمعني للحظة ! سأقول لك ، سحقاً لسمائي ! أكاد لا أتمالك نفسي . أكاد لا أتمالك نفسي من البحث في الخزائن اللعينة . أقسم لك ! كل مساء حين أعود الى المنزل ينتابني شعور بأنني سأجد شلّة من الأوغاد مختبئين في الخزائن . في كل مكان . صبيان خدمة المصاعد ، صبيان الدكاكين ورجال شرطة ...

ـ حسناً ، حسناً ، حاول أن تهدّئ نفسك قليلاً يا أرثر ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

ألقى نظرة عاجلة الى يمينه ، نحو سيكارة ، كان أشعلها خلال الأمسية ، موضوعة بتوازن على حافّة منفضة ، ولكنها بدت مطفأة فلم يتناولها .

ـ إسمع ، قال في السماعة ، لا أعلم كم مرة قلت لك في الماضي يا أرثر ، وهذا بالضبط خطأك الكبير . أتعلم ماذا تفعل ؟ أتريدني أن أقول لك ماذا تفعل؟ أنت تبحث عن العصيّ لتضعها في عجلاتك ـــ بجد ـــ أنت تبحث عن أي شيء ليعذبك . والحقيقة أنّك أنت نفسك توفر لجواني الأفكار المبتكرة لتفعل بك هذا .

ثمّ بدّل من نبرته .

ـ لا زلت محظوظاً لأنّها ليست سوى فتاة صغيرة طيبة ، أؤكد لك . أنت لا تثق بها ابداً ، مهما فعلت ، لا برقّتها ولا بفهمها ، بحقّ السماء ، ما دمنا نتكلم على هذا ...

ـ الفَهم ! أنت تمزح أم ماذا ؟ لم تمتلك في حياتها مقدار غرامين كاملين من الفَهم ! إنّها بهيمة !

بدا الرّجل ذو الشّعر الرّمادي منتفخ المنخرين كما لو أنّه يتنفس بعمق .

ـ نحن ، جميعنا ، بهائم ، قال . في أعماقنا نحن جميعنا بهائم .

ـ يا للهزل ! أنا ليس بي شيء من بهيمة لعينة ! قد أكون الأكبر بين حمقى وأوغاد وأولاد غواني القرن العشرين ، ولكن ليس بي شيء من البهيمة ، ولا داعي لأن تبح ، ليس بي أيّة صفة حيوانيّة .

ـ إسمع يا أرثر ، كل هذا لا يفضي بنا الى ...

ـ الفهم ! رائع والله ، أنت لا تدرك كم يضحكني . إنّها تحسب نفسها مثقّفة لعينة ! وليس هذا وحده المضحك ، هناك المزيد . إنّها تقرأ في الجريدة صفحة العروض المسرحيّة والسينمائيّة ، وتشاهد التلفزيون حتى تتورم عيناها ، وهكذا تحسب أنّها أصبحت مثقّفة ! أتود أن تعرف من تزوجتُ ؟ لقد تزوجتُ الفتاة الأكثر تخلفاً على قيد الحياة من بين الممثلات ـ المحللات النفسانيات ـ الروائيات ـ اللواتي ـ ينتظرن ـ فرصة اكتشافهن ! تزوجتُ إحدى أكثر العبقريات انغماراً في كل أرجاء نيويورك ! وهذا هل كنت تعرفه ، هه ؟ والله إنّ ما أعانيه يجعلني لا أرغب في العيش ولو ليوم إضافي واحد ! إنّها مدام بوفاري تتابع دروس المساء في جامعة كولومبيا ! مدام ...

ـ مَنْ ؟ سأل الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ بصوت ملول .

ـ مدام بوفاري تتلقّى دروساً في النقد التلفزيوني . والله ، أنت لا تستطيع أن تدرك كم ...

ـ حسناً ، حسناً . أنت ترى جيداً أنّ كل هذا لن يصل بنا الى نتيجة ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

ـ استدار ووضع إصبعين على فمه مشيراً الى المرأة الشّابة بأن تناوله سيكارة .

ـ ثمّ ، قال في السماعة ، برغم تمتّعك بذكاء حاد إلاّ أنّك تفقد منطق الأمور .

إستقام قليلاً في وقفته ليتسنّى للمرأة أن تتناول علبة السكائر من خلفه .

ـ بجد . هذا واضح في حياتك ، وهذا واضحٌ في ...

ـ الفَهم ! أي والله ، هذا يقتلني ! يا ربي الكليّ القدرة ! ألم تسمعها وهي تتحدث عن شخص ما ـ أقصد عن رجل ما ؟ ذات يوم إن لم يكن لديك ما تفعله حاول ، كَرْمى لي ، أن تستدرجها الى الكلام على شخصٍ ما ، فهي تقول عن كل الرّجال الذين تصادفهم : هذا الرّجل " شديد الإغراء ". ولا يعنيها أن يكون الرّجل هو الأعجز أو الأسمن أو الأوسخ...

ـ حسناً يا أرثر ، كل هذا لا يؤدي الى شيء . الى أيّ شيء على الإطلاق . قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

تناول إحدى السيكارتين المشتعلتين من المرأة . كانت أشعلت سيكارتين .

ـ في المناسبة ، قال وهو ينفث سحابة دخان من أنفه ، كيف جرت الأمور اليوم ؟

ـ ماذا ؟

ـ كيف تدبّرت الأمور اليوم ؟ ردّد الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . كيف جرت الأمور في القضيّة ؟

ـ أوه ، يا إلهي ! ما عدت أعرف . سيئة . قبل أقلّ من دقيقتين من مرافعتي ، ماذا يفعل المحامي الخصم ، ليسبرغ ؟ يستدعي خادمة مجنونة فتدخل وهي تحمل كدسة ملاءات على أنّها أدلّة . كانت مليئة ببقع الصدأ .

ـ إذن ! خسرت القضيّة ؟ سأل الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ وهو يسحب نفساً من سيكارته .

ـ أوتدري من كان على المنصّة ؟ ماذر فيتوريو ، وبحق الشيطان لا أعرف لماذا هـذا الرّجـل ينـاصبني العـداء ! فـلا أكـاد أتفـوّه بكلمـة حتـى يتصدّى لي . يستحيل أن تناقش رجلاً مثله ، مستحيل .

استدار الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ ليرى ماذا تفعل المرأة الشّـابة . كانت قد أحضرت منفضة ووضعتها بينهما .

ـ إذن ، خسرت أم ماذا ؟ قال في السماعة .

ـ مـاذا ؟

ـ أسألك هل خسرت القضية ؟

ـ أجل . كنت أحاول أن أخبرك . لم يكن لـديّ أي أمـل للـربح ، في وسط كل هذا الإرباك . هل تظن جونيور سيغضب ؟ لأن الأمر يقلقني، تبّاً ، ولكن ماذا تقول ؟ هل تظنه سيغضب ؟ بحركة من يده اليسرى نفض الرّجل رماد سيكارته على حافّة المنفضة .

ـ لا ، ليس بالضرورة أن يستشيط غيظاً ويناطح السقف . ولكـن هناك احتمال ضئيل أن يغضب ويقبـض علـى عنقك . هل تعلـم منـذ متـى نتولّى قضايا فنادقه الثلاثة القذرة ؟ أيام شانلي العجوز نفســه فهـو الـذي بـدأ معه ...

ـ أعلم ، أعلم ، لا يحسب جونيور أنّه روى حكايـة إلا إذا رواهـا خمسين مرة . إنّها أجمل حكاية سمعتها في حياتي . صحيـح أنّنـي خسـرت هذه القضيّة ، وماذا بعد ؟ أولاً ، ليست غلطتـي . أولاً ، هـو لا يمتلكنـي . وفيتوريـو لـم يكـفّ لحظـة طـوال الجلسـات عن انتقـادي . وكـانت الخاتمـة السعيدة حين جاءت هذه الخادمة الدابّة ، وراحت تبسط المـلاءات الملطّخـة بالصدأ .

ـ لا أحد يقول إنّها غلطتك يا أرثر ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . سألتني عن جونيور هل يغضب فقلتُ لك ببساطة ...

ـ أعلم ، أعلم جيداً . ما عدت أعلم شيئاً . ليأخذني الشيطان ، في استطاعتي أن أعود إلى الجيش ، هل حدثتك بهذا الأمر ؟

استدار الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ من جديد نحو المرأة الشّابة لتشهد على سعة صدره ، بل على بطولته . ولكن المرأة لم تر إيماءه كانت صدمت المنفضة بركبتها وأوقعتها على الأرض وتحاول أن تجمع الرّماد المتناثر بأصابعها . ثم رفعت عينيها نحوه لهنيهة ولكن بعد فوات الأوان .

ـ لا يا أرثر لم تحدثني بالأمر ، قال في السماعة .

ـ آه ، ممكن . لم أقرر بعد . فقط تراودني الفكرة وليس أكثر ، ولن أقدم على خطوة من هذا النوع إلا إذا اتضح لي أنّها ضروريّة . والأمر جائز . لستُ أدري . على الأقل قد يمحو هذا كل شيء . حين أستعيد خوذتي ومكتبي الضخم وناموسيتي الكبيرة ، في الحقيقة لا يبدو لي...

ـ أود لو أغرس في رأسك ذرّة من المنطق يا صغيري ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ ، لأحسست عندها بالغبطة ، صدّقني . لفتى ذكيّ، أو حتى لفتى مزعوم الذّكاء ، كلامك لا يمكن أن يصدر إلا عن صبيّ في الثانية عشرة . وأقول لك هذا بصدق . أنت تكسب التفاصيل الصغيرة حجم الهملايا فيما أنت عاجز عن ...

ـ كان ينبغي أن أهجرها . أو تدري ؟ كدت أنفصل عنها هذا الصيف حين كانت ظروفي مؤاتية ... وهل تعلم لماذا أحجمت ؟ تود أن تعرف السبب ؟

ـ أرثر ، كل هذا لن يصل بنا الى نتيجة .

ـ إنتظر ، لحظة واحدة لأخبرك عن السبب ، تود أن تعرف لماذا أحجمت عن الانفصال عنها ؟ بإمكاني أن أعطيك جواباً دقيقاً : ذلك أنّي أشفقتُ عليها إنّها الحقيقة المجرّدة لقد أشفقتُ عليها .

ـ حسناً ، لا أعلم ، أعجز قليلاً عن فهم هذا ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . ولكن يبدو لي أن الأمر الوحيد الذي تريد أن تنساه هو أنّ جواني امرأة بالغة وذات تجارب . لا أعلم ولكن يبدو لي ...

ـ بالغة وذات تجارب ..! أنت معتوه أم ماذا ؟ إنّها طفلة وذات تجارب ، هذا أجل ! إسمع يكفي أن أحلق ذقني ـ إسمع وسترى بنفسك ـ أكون منهمكاً في حلاقة ذقني وفجأة أسمعها تناديني من مكان ما داخل الشقة ، فأهرع لأتبين ما الذي يجري ـ في غمرة انهماكي والرغوة تغطّي وجهي! ـ وهل تعلم ماذا تريد؟ تريد أن تسألني هل أعتقد أنّها ذكيّة .أقسم لك ! إنّها تثير الشفقة ، أؤكد لك ! أنا أتأملها وهي نائمة واثقاً مما أقوله لك، صدقني .

ـ حسناً ، أنت في موقع يجعلك ... في النهاية ، الأمر لا يعنيني، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . والمشكلة ، بحقّ السماء ، تكمن في أنّك لا تقوم بأي مبادرة بنّاءة لكي ...

ـ غياب الانسجام ، تلك المشكلة . تلك هي المأساة . الانسجام فيما بيننا مفقودة بصورة لا تصدّق . هل تعلم ما الذي يلائمها ؟ إنّها محتاجة لوغدٍ كبير لا يفتح فمه ، فقط يدخل عليها من حين لآخر فيضاجعها ثم يعود ليواصل قراءة جريدته ، هذا ما تحتاجه . أما أنا فخرع جداً معها . أدركت ذلك لحظة زواجنا ، أقسم لك ، أقصد ، أنت من جهتك داهية كبير،

لم تـتزوج مـن قبـل ، وثمّـة لحظـات ، حيـن يـتزوج المـرء ، يـرى خلالهـا التماعـات كشـف عمـا سـيحدث بعـد الـزواج . ولـم أرد أن أواجـه هـذه الالتماعات الرهيبة . أنا خرِعٌ . وهنا لبّ المأساة .

ـ لستَ خرعاً ولكنّك لا تعرف كيف تستعمل دماغك ، هذا كل مـا في الأمر ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

وتناول السيكارة الجديدة التي أشعلتها له المرأة الشّابة .

ـ وكيف لا أكون خرعاً ! كيف ! وحـق السـماء أنـا أعـرف جيـداً هل كنت خرعاً أو لا ! لو لم أكن خرعاً ألا تعتقد بـأنّي كنـت أدع الأمـور على ما هي عليه كما ... أوه ، ثمّ ما الفائدة ؟ أنا خرع بالتأكيد ! ولكن ، يا إلهي، ماذا فعلت بك ، إنّي أجعلك تقضي ليلة بيضاء ! لمـاذا لا تقفـل الخـط في وجهي ، صدّقني . أقفل الخط .

ـ لا أرغـب فـي إقفـال الخـط يـا أرثـر ، قـال الرّجـل ذو الشّـعر الرّماديّ ، أريد مساعدتك ، هذا إذا كان الأمر ممكناً علـى البشـر . الحقيقـة هي أنّك لنفسك أسوأ ...

ـ لا تكّن ذرّة من الاحترام لي ، حتى لا تكّن حباً ، بحق السماء . وفي نهاية المطاف ، إذا ما تمعنّا جيداً ، أنـا نفسـي لا أكـنّ لهـا حبّـاً ، مـا عدت أعلم ، أحبها ثم لا أعـود أحبهـا ، الأمـر رهـن الظـروف ، بـل رهـن الأيام ، سحقاً . وفي كـل مـرّة أعقد العزم علـى الانفصـال عنهـا أدعوهـا، لسببٍ أو لآخر ، الى العشاء في المدينة ، او نتفّق على أن نلتقي فـي مكـان ما ، فتأتي بقفازيها اللعينين الأبيضيـن أو أي شـيء آخـر . لا أعـرف الآن. أو يخطر لي عندها أول رحلة لنا فـي السيارة حين ذهبنـا لمشـاهدة مبـاراة برينستاون في نيوهافن . انفجرت العجلة قبالة باركواي تمامـاً . كـان البـرد

صقيعاً وكانت تحمل المصباح الكهربائي ، بينما كنت أبدّل العجلة ، بنت الغانية ، أوتدرك ما أود قوله . لا أعرف ، أو يخطر لي أيضاً ـ إلهي ، كم يسبب لي ذلك من الإحراج ـ أن أتذكّر قصيدة الحمرنة تلك والتي أرسلتها إليها حين بدأنا بالخروج معاً :

زهريّ لوني وأبيض ،

جميل فمي وعيناي خضراوان ...

تبّاً ، هذه ليست أشياء تقال ، وكنت أتذكّرها . لم تكن عيناها خضراوين ـ لها عينان كتلك القواقع الملوّنة ! ـ ولكن هذا كان يذكّرني بها... لست أعلم ، وما الفائدة ؟ إني أفقد صوابي . هل تقفل الخط ؟ صدّقني.

تنحنح الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ وقال :

ـ لا أرغب في إقفال الخط يا أرثر ، برغم كل شيء هناك أمر...

ـ أهدتني طقماً ، من نقودها هي ، لقد أخبرتك ؟

ـ لا ، أنا ...

ـ ذهبت بكل طيبة الى محلات ... ترييلر ، كما أظن ... واشترته . لم أرافقها ، إنتبه ، ما أود قوله إنّها تمتلك بعض الجوانب الحسنة في شخصيتها ، والأظرف أنّ الطقم لم يكن سيئاً جداً . كان ينبغي فقط أو توسع قياس البنطال ، عند الساقين وأن تقصّره قليلاً . هل تفهمني ، لها حسنات فعلية .

أصغى الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ لبضع ثوانٍ أخرى . ثمّ التفت فجأة نحو الفتاة . وكانت النظرة التي رمقها بها ، ولو عابرة ، واضحة العبارة عما حدث فجأة في الطرف الآخر من الخط .

ـ إسمع يا أرثر ، هذا لن يجديك شيئاً ، قال في السماعة . لن يجديك ، أؤكد لك . إسمع أقول لك بكل صدق . ستخلع ثيابك وتذهب الى السرير مثل صبيّ عاقل . واهدأ قليلاً . لن تلبث جواني أن تصل خلال دقيقة واحدة . وأنت لا تريد أن تراك في مثل هذه الحال ، أليس كذلك ؟ وسيصل آل ألنبوغن معها . وأنت لا تريد أن يراك الجميع وأنت في حال مماثلة ، أليس كذلك ؟

أصغى .

ـ أرثر ؟ هل تسمعني ؟

ـ يا إلهي ، إني أمنعك عن النوم . كل ما أفعله هو ...

ـ أنت لا تمنعني عن النوم . قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . لا تقلق لهذا الأمر . قلت لك من قبل لا أنام أكثر من أربع ساعات في الليلة . وما أود أن أفعله فعلاً هو أن أساعدك ، إذا كانت مساعدة البشر ممكنة يا صغيري .

أصغى .

ـ أرثر ؟ ما زلت هناك ؟

ـ أجل . ما زلت هنا . إسمع لقد أيقظتك لبقية الليلة بكل حال . أفي إمكاني أن آتي لأشرب كأساً عندك ؟ هل يزعجك الأمر ؟

استقام الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ في وقفته ووضع راحة يده الطليقة على رقبته .

ـ تقصد : الآن ؟

ـ أجل . طبعاً إذا كان هذا لا يزعجك . لن أمكث سوى دقيقة واحدة . يكفي أن أجلس في مكان ما و ... لستُ أدري . هل توافق ؟

ـ أجل ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ . ولكن في الحقيقـة أعتقد أنّ من الأفضل أن لا تأتي يا أرثر .

أنـزل يده عن رقبته .

ـ إفهمني جيداً ، أنت على الرحب وأكثر ، ساعة تأتي ، ولكن بصدق ، أعتقد أنّ من الأفضل لك أن تبقى هادئاً في بيتك حتى تعود جواني. وبصدق أحسب أنّ ما تريده هو أن تكون هنا حين تعود جواني الى البيت ، أهذا صحيح أم لا ؟

ـ أجل ، ما عدت أعرف ، يا إلهي ، ما عدت أعرف .

ـ ولكن بلى ، بصدق ، أظن أنّ هذا صحيح ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ ، إسمع ، لماذا لا تذهب لتستلقي الآن ؟ هذا سيساعدك على استرجاع بعض هدوئك ، وبعد ذلك ، إذا أحببت ، إتصل بي من جديد . أقصد إذا كنت ترغب في التحدث قليلاً . وكفّ عن استثارة مواجعك . هذا هو الأهم . هل تسمعني ؟ ستنفّذ ما قلته لك ؟

ـ حسناً .

أبقى الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ السماعة على أذنه لبضع ثوانٍ ثم وضعها في مكانها .

ـ ماذا قال ؟ ما لبثت الفتاة أن سألت .

تناول سيكارته من المنفضة في وسط كومة من السكائر الأخرى المستهلكة بتفاوت . أخذ نفساً منها وقال :

ـ كان يريد أن يأتي الى هنا ويشرب كأساً .

ـ يا إلهي ! وماذا قلت له ؟ قالت المرأة الشّابة .

ـ لقد سمعتِ ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

نظـر إليهـا .

ـ لقد سمعتِ ، أليس كذلك ؟

سحق سيكارته في المنفضة .

ـ لقد كنت مذهلاً ، مذهلاً بالفعل ، قالت المرأة الشّابة وهي ترمقه . يا إلهي القدير ، أشعر بأنّني كلبة من أعلى رأسي حتى باطن قدمي!

ـ أتعلمين ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ ، لقد كان الموقف مؤلماً ، ولا أعلم إذا كنت مذهلاً حقاً كما تحسبين .

ـ بلى ، كنت مذهلاً ، قالت المرأة الشّابة ، أشعر بارتياح ، أشعر بارتياح تام . أنظر إليّ ! نظر إليها الرّجل ذو الشّعر الرّمادي .

ـ الحقيقة إنّه موقف بالغ الصعوبة ، قال ، أقصد أنّ كل هذا خرافيّ ، حتى ليس ...

ـ حبيبي ، أعذرني ، قالت المرأة الشّابة بحيوية وهي تنحني عليه، أعتقد أنّك تحترق ؟

نفضت له ظهر كفّه بضربات خفيفة من رؤوس أصابعها .

ـ لا ، هذا رماد .

ابتعدت عنـه .

ـ لقد كنت رائعاً فعلاً ، قالت . سحقاً اشعر بأنّني كلبة من أعلى رأسي حتى باطن قدميّ.

ـ أجل إنّه موقف مؤلم جداً . هذا الفتى في طريقه لأن يفقد ...

فجأة رنّ جرس الهاتف . قال الرّجل ذو الشّعر الرّمادي " تبّاً !" ولكنه رفع السماعة قبل أن يرن ثانية .

ـ آلو ؟ قال .

ـ هذا أنت يا لي ؟ هل أنت نائم ؟

ـ لا ، لا .

ـ إسمع ، فقط أردت أن أبلّغك ، لقد عادت جواني الى البيت .

ـ ماذا ؟ قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ .

رفع يده اليسرى ووضعها مثل واقية قبالة عينيه برغم أنّ النور كان خلفه .

ـ أجل عادت لتوها . لم تتأخر أكثر من عشر ثوان بعد مكالمتي السابقة . وفكّرت أنّني ربّما ينبغي أن أتصل بك فيما هي في الحمام . إسمع، لك مني ألف شكر يا لي . أقصد ، هل تفهم ما أحاول قوله ، ألم تكن نائماً ، لا ؟

ـ لا ، لا ، كنت أكاد ... لا ، لا ، قال الرّجل ذو الشّعر الرّماديّ وتنحنح .

ـ أجل ، أو تدري ماذا حدث ؟ يبدو أن ليونا افتعلت شجاراً وانتابتها نوبة بكاء ، فطلب بوب من جواني أن ترافقهما لاحتساء شراب ما في مكان ما للمساعدة على نسيان ما حدث ، لستُ أدري . المهم ، كما ترى ، الأمر معقّد جداً . ولقد عادت على كل حال ، يا لها من شلّة ! بلا مزاح ، أعتقد أنّ تلك العاهرة نيويوك هي التي تسبب كل هذا . وما أنتويه، لو سار كل شيء على ما يرام ، هو ، ربما ، أن أجد ركناً هادئاً في كونكتيكت ، ليس ضرورة في الجحيم ، ولكن شريطة أن يكون بعيداً كفاية لنتمكن من العيش بهدوء . أتفهمني ، هي تحب النباتات وما الى هنالك ، والأرجح أنّها ستفقد صوابها لشدة الفرح حين يصبح لديها حديقتها وكل هذا

الهراء . أتفهمني ؟ فـي النهايـة ، مـا عداك أنـت نحـن لا نعـرف أحـداً فـي نيويورك ، طبعاً إلا شلّة من العصابيين ! إنّه أمر محتوم ، عاجلاً أم آجـلاً، هذه المدينة من شأنها أن تدمر المرء حتى لو كان طبيعياً . أتفهمني ؟

لم يرد الرّجل ذو الشّعر الرّمادي وخلف يده الواقيـة كـانت عينـاه مغمضتين .

ـ في أية حال سأفاتحها حالاً . أو ربّما صباح غد ، فهـي مرتبكـة الذّهن قليلاً . أتفهمني ؟ إنّها في أعماقها فتاة طيّبة ، وإذا كانت هناك فرصة لتسوية الأمر بيننا ، نحن الإثنين ، فمـن الغبـاء حقاً ألا نحـاول . ولمـاذا لا أحـاول أن أتدبـر حـلاً لقضيـة البقـع الصدئـة اللعينـة . لقـد فكّـرت بالمسـألة وأتساءل يـا لـي : ألاَ تعتقـد أنّنـي لـو ذهبـت بنفسـي لمقابلـة جونيـور فقـد أستطيع...

ـ أرثر ، إذا كنت لا تمانع ، كنت أود ...

ـ إفهمني جيداً ، لا أريدك أن تحسب أنّني اتصلت بك ثانية لأنّنـي أواجه صعوبات في العمل أو أي شيء من هذا القبيل . لا علاقة لهذا الأمر برغبتي في الاتصال بك . كنت أفكر فقط أنّنـي إذا كـان فـي اسـتطاعتي أن أسوّي الأمر مع جونيور دون أن أتعب نفسي ، فمن الحمق ألاّ ...

ـ إسمع يا أرثر ، قال الرّجل ذو الشّـعر الرّمـاديّ وهـو يبعـد يـده عن وجهه ، لقـد أصـابني صـداع مفـاجئ يفتـت رأسـي . لا أعلـم مـن أيـن أتـاني، فهـل يزعجـك أن نوقـف الحديـث الآن ؟ وسـنتحدث بـالأمر غـداً صباحاً... اتفقنا ؟

أبقـى السـماعة على أذنـه لوهلـة ثمّ أقفل الخـط .

لم تلبث المرأة الشّابة أن واصلت حديثها معه ، ولم يجب . تنـاول من المنفضة سيكارة مشعلة ـ سيكارة المرأة الشّابة ـــ وأدارها الـى شـفتيه فانزلقت من بين أصابعه . انحنت المرأة الشّابة لتساعده علـى التقاطها قبل أن تحرق شيئاً ما ، قال لها دعيني وشأني بحقّ السماء ، فسحبت يدها .

" رجلـي المُخَلَّـع في كـونَكْتِكُـت "

كانت السّاعة قاربت الثالثة حين اهتدت ماري جاين أخيراً الى منزل إيلويز ، قالت لإيلويز التي اجتازت الشارع لملاقاتها إنّ كل شيء جرى على خير ما يرام وأنّها تذكّرت الطريق بدقّة حتى التفّت حول ممرّ "مريك بارك " . قالت إيلويز : " مريّت بارك يا عزيزتي "، وذكّرتها بأنّها سبق لها أن جاءت مرتّين الى المنزل ، إلاّ أنّ ماري جاين اكتفت بأن غمغمت شيئاً غير مفهوم حول علبتها الكلينكس وعادت فجأة الى سيارتها الديكابوتابل . رفعت إيلويز ياقة معطفها الشّاموا ، وأدارت ظهرها لمجرى الهواء وانتظرت . وبعد هنيهة عادت ماري جاين ، وهي تمسح يدها بورقة كلينكس وكانت لا تزال تبدو شاحبة ومُهْمَلة المظهر . قالت إيلويز بمرح إنّ الغداء اللعين احترق كله . قطع الخبز الصغيرة ، وكل شيء ــ ولكنّ ماري جاين قالت إنّها ، بأيّة حال ، تناولت طعام الغداء في الطريق . وبينما كانتا تسيران جنباً الى جنب في اتجاه المنزل سألت إيلويز ماري جاين كيف حدث أنّها حظيت بنهار إجازة . وقالت ماري جاين إنّ إجازتها ليست لنهار كامل وما حدث ببساطة أنّ السيد وينبرغ أصيب بفتق ولازم بيته في لارتشمونت : وعليها ، كل بعد ظهرٍ ، أنْ توصل إليه بريده وتحضر منه رسالة أو اثنتين وسألت :

ــ بالمناسبة ماذا يعني الفتق بالضبط ؟

قالت إيلويز وهي ترمي سيكارتها عند قدميها في الثّلج المتّسخ ، إنّها لا تعرف بالضبط ، ولكن ليس على ماري جاين أن تقلق للأمر وأنّه مرض غير معدٍ . فقالت ماري جاين :" أوه " ودخلت الفتاتان الى المنزل .

بعد انقضاء عشرين دقيقة كانتا تنهيان كأسهما الأولى في ردهة الجلوس تثرثران بتلك النّبرة الخاصّة التي لا نجدها إلاّ في علاقة فتاتين

تقاسمتا في الماضي غرفة نوم واحدة في المدرسة . وكانت هناك صلة أخرى تجمع بينهما : أنّ أيّاً منهما لم تحصل على شهادة التخرُّج . كانت إيلويز تركت المدرسة عام ١٩٤٢ في منتصف سنة التخرُّج ، وبعد اسبوع واحد من العثور عليها برفقة جندي في حجرة مصعد مقفل في الطّابق الثّالث من المدرسة الداخليّة . أمّا ماري جاين فقد كانت هجرت الدراسة في السنة نفسها والصف نفسه والشهر ذاته تقريباً للزّواج من جندي غرّ في سلاح الطيران التحق بقاعدته في جاكسون فيل بفلوريدا ، وكان فتى نحيلاً شارد الذهن باستمرار ، من مدينة ديلّ في الميسيسيبي ، وكان أمضى في السجن شهرين من الأشهر الثّلاثة التي صمد خلالها زواجهما لأنّه طعن أحد أفراد الشرطة العسكرية .

ـ لا ، قالت إيلويز ، في الحقيقة كان أصهب .

كانت ممدّدة على الكنبة وقد شبكت ساقيها النّحيلتين . ولكنْ بالغتي الجمال عند مستوى العرقوبين .

ـ لقد تنامى إليّ أنّه كان أشقر ، ردّدت ماري جاين وهي تجلس على كنبة زرقاء . وأقسمت لي علاّنة من النّاس أنّه كان أشقر .

ـ لا ، لا! بالتّأكيد لا، قالت إيلويز متثائبة . لقد كنتُ ، عملياً ، في الغرفة عندما صبغت شعرها . لكن ماذا يجري ؟ أمّا من سكائر هنا ؟

ـ لا بأس ، لديّ علبة مختومة ، قالت ماري جاين . إنّها في مكان ما هنا .

فتّشت في حقيبتها .

ـ يا لتلك الخادمة المخبولة ، قالت إيلويز دون أن تنهض عن الكنبة . لقد وضعت خرطوشتي سكائر جديدتين تحت أنظارها منذ أقلّ من

نصف ساعة . ولن تلبث أن تأتي ، بعد برهة ، لتسألني ماذا عساها تفعل بهما . ولكن ، بحقّ الشّيطان ، ماذا كنت أقول ؟

ـ ثيرنغر ، همست ماري جاين وهي تشعل سيكارة من علبتها .

ـ آه ، أجل . أذكر الحادثة كما لو أنّني رأيتها مساء أمس . لقد صبغت شعرها عشيّة زواجها من فرانك هانكه ذاك . ألا تذكرينه ؟

ـ بصورة غائمة ، أجل . رجل من صنفٍ ثانويّ متقدّم في السّن قليلاً وليس فيه ما يُغوي .

ـ ليس فيه ما يُغوي ، يا إلهي ! من يراه يحسب أنّه بيلا لوغوزي ولكنْ غير مغسول !

انفجرت ماري جاين ضاحكة وهي تلقي برأسها إلى الخلف .

ـ رائع ، قالت وهي تستقيم من جديد لكي تحتسي شرابها .

ـ ناوليني كأسك ، قالت إيلويز .

أنزلت قدميها الى الأرض ووقفت حافية إلاّ من جوربيها .

ـ يا لها من مخبولة بالفعل ! لقد فعلتُ ما في وسعي لإقناعها بالمجيء الى هنا والشيء الوحيد الذي لم أفعله أن أدفع لو لتملّقها . فقط لو كنت أعلم ... من أين لكِ هذا ؟

ـ هذا ؟ قالت ماري جاين ورفعت يدها وأمسكت أيقونة عقيق في عنقها . ولكني أعلّقها منذ أيّام الدّراسة ! إنها هدية من أمي .

ـ إلهي ، قالت إيلويز ، وهي تحمل كأساً في كل يد ، أنا لا أملك شيئاً يوحي بالتّدين لأرتديه ، وإذا حدث أن توفيت أم لو ـ ها ! ها ! فعلى الأرجح أنّها لن تترك لي سوى ملقط ثلج حفرت عليه الأحرف الأولى من إسمها ، أو أي شيء من هذا القبيل .

ـ بالمناسبة ، كيف تجري الأمور بينكما في هذه الأيام ؟
ـ كفّي عن المزاح ، قالت إيلويز وهي تتجه نحو المطبخ .
ـ هذه الكأس ستكون الأخيرة لي ، هل سمعتِ ! قالت ماري جاين بصوتٍ مرتفع .
ـ هراء ! مَنْ اتّصل بمَنْ ؟ ومَنْ الذي وصل بعد ساعتين من التأخير ؟ ولن تغادري هذه الكنبة قبل أن أضجر منك . ولتذهب ترقيتك القذرة الى الجحيم !

ألقت ماري جاين رأسها الى الخلف وانفجرت ضاحكة من جديد ، ولكنّ إيلويز كانت قد دخلت الى المطبخ .

ولمّا كانت ماري قليلة الصّبر على البقاء وحيدةً في غرفة نهضت واتّجهت نحو النّافذة ، ورفعت الستائر واتّكأت بجماع كفّها على إحدى العارضتين ، ولكنّها ، إذ تحسّست الغبار المتراكم عليها ، لم تلبث أنْ رفعتها ومسحتها براحة اليد الأخرى ومكثت منتصبة هناك بلا حراك . كان وحل الثلج المتّسخ يتجمّد صراحةً ، اسدلت ماري جاين السّتائر وعادت الى الكنبة دون أن تلتفت ، إذ حاذتهما ، الى مكتبتين مليئتين بأكداس الكتب . وحين جلست فتحت حقيبتها وتناولت منها مرآتها الصغيرة لتتفحّص أسنانها، وزمّت شفتيها ومرّرت لسانها بقوّة على أسنانها الأماميّة وتفحّصتها من جديد .

ـ يا له من صقيع في الخارج ، قالت وهي تستدير . تبّاً ، لقد فعلتِ بسرعة ، ألم تضعي فيهما الصودا ؟

جمدت إيلويز في مكانها وهي تحمل كأساً مغبّشة في كل يد . مدّت سبّابتيها وكأنّهما فوهتا مسدّسين وقالت :

ـ إلزموا مكانكم بلا حراك ! الغرفة محاصرة من كل صوب !

ضحكت ماري جاين وأعادت مرآتها الى الحقيبة .

إقتربت إيلويز وهي تحمل الكأسين ، ووضعت كأس ماري جاين مُنحرفةً على واقٍ خشبيّ مدوّر ولكنها احتفظت بكأسها في يدها . وعادت واستلقت على الكنبة .

ـ ماذا تحسبين أنّها تفعل في المطبخ ؟ قالت . إنّها قابعة على قفاها السّمين الأسود تقرأ كتاب " الجلباب " . لقد أوقعت أوعية الثلج وأنا أسحبها من الثلاجة فلم تكد ترفع عينيها في اتّجاهي وبدا عليها الانزعاج .

ـ إنّها كأسي الأخيرة ، أؤكد لك ، قالت ماري جاين وهي تتناول كأسها ، هيه ، إسمعي ، أتعلمين بمن التقيت الأسبوع الماضي ؟ في الطّابق الأول من محلات لورد أند تايلور ؟

ـ هم م م ! قالت إيلويز وهي تسوّي أريكة تحت رأسها ، آكيم تاميروف .

ـ مَنْ ؟ قالت ماري جاين ، ومَنْ يكون هذا ؟

ـ آكيم تاميروف . إنّه ممثّل سينمائي ، ويقول دائماً :" أنت تمزح ح ح ببذااءة ، هيه ؟"، أنا أعبده ... ليس في هذا المنزل أريكة واحدة أستطيع أن أتحمّلها ، بمَنْ التقيتِ ؟

ـ بجاكسون . كانت ...

ـ أيّتهما ؟

ـ لم أعد أذكر ، تلك التي كانت معنا في صف علم النّفس .

ـ إذن ، تلك التي كانت لها ...

ـ مارشيا لويز ، لقد التقيت بها أنا أيضاً ذات يوم ، وهل أرهقتك بثرثرتها ؟

ـ يا الله كم ثرثرت ، ولكن ، برغم ذلك ، أتدرين بماذا أخبرتني؟ أستاذتنا ، ويتينغ ، لقد توفّيت . قالت لي إنّ بربارة هيل كتبت إليها تخبرها أنّ ويتينغ أصيبت بالسّرطان منذ الصيف الماضي وأنّها توفّيت وكل شيء . لقد كانت تزن حين ماتت ثلاثين كيلوغراماً . إنّه أمر فظيع ، أليس كذلك ؟

ـ لا .

ـ إيلويز ، لقد أصبحت بقسوة الإسمنت .

ـ هم م م ! ماذا قالت بعد ؟

ـ أوه ! كانت عائدة حديثاً من أوروبا . فزوجها كان ينجز عملاً في ألمانيا أو أي شيء من هذا القبيل وكانت برفقته . كانوا يقطنون منزلاً من سبع وأربعين حجرة ولا يشاركهما فيه سوى زوجين آخرين وعشرة خُدّام على الأقل . وكان لها حصانها الخاص أيضاً وكان مدبّر الإسطبل الذي يعمل في خدمتهم هو نفسه مدرّب الفروسيّة الخاص لهتلر أو شيء من هذا القبيل . أوه ! وراحت تروي لي كيف كادت تُغتَصب من جندي أسود . وكانت تروي لي كل هذا وسط ازدحام الطّابق الأول من محلات لورد أند تايلور ! أنت تعرفين جاكسون جيداً . أخبرتني أنّه كان سائق زوجها . وأنّه كان يوصلها الى السوق أو شيء من هذا القبيل ، ذات صباح . وقالت إنّها تملّكها الخوف لدرجة أنّها لم ...

ـ إنتظري لحظة .

رفعت إيلويز رأسها ونادت :

ـ أهذه أنت يا رامونا ؟

أجل ، أجاب صوتُ طفل .

ـ لو سمحتِ ، أغلقي الباب وراءك ، قالت إيلويز بصوت عالٍ.

ـ إنَّها رامونا ! آه ! كم أشتاق لرؤيتها ، أوتدركين ، لم أرها منذ أن ...

ـ رامونا ، نادت إيلويز وهي مغمضة العينين . إذهبي الى المطبخ وقولي لغريس لتنزع لك حذاءك المطّاط .

ـ حسناً ، قالت رامونا ، تعال يا جيمي .

ـ أوه ، كم أشتاق لرؤيتها ، قالت ماري جاين . أوه ! يا إلهي ! أنظري ماذا فعلت ! أنا آسفة ، جداً .

ـ لا بأس ، دعكِ من هذا ، قالت إيلويز ، لا أحب هذه السجّادة اللعينة بأيّة حال . سوف أحضر لك كأساً أخرى .

ـ لا ، أنظري ، لا يزال ممتلئاً نصفها !

ورفعت ماري جاين يدها لتريها كأسها .

ـ صحيح ؟ قالت إيلويز ، ناوليني سيكارة .

مدّت لها ماري جاين علبتها وهي تقول :

ـ أوه ، كم أشتاق لرؤيتها . مَنْ تشبه الآن ؟

أشعلت إيلويز عود ثقاب :

ـ تشبه آكيم تاميروف .

ـ لا ، بجدّ .

ـ لُو ، تشبه لُو ، وعندما تكون والدته موجودة يبدون مجتمعين مثل ثلاثة توائم .

دون أن تنهض طاولت يد إيلويز كدسة منافض على الجهة المقابلة للمنضدة الواطئة وأمسكت بإحداها ووضعتها على بطنها .

ـ ما أنا بحاجة إليه هو كلب صيد إنكليزي (كوكر) أو شيء من هذا القبيل ، قالت . شخص ما يشبهني .

ـ كيف حال عينيها الآن ؟ سألت ماري جاين . أقصد أنّها لا تزداد سوءاً ولا شيء ، أليس كذلك ؟

ـ والله ، ليس على حد علمي .

ـ وهل تستطيع أن ترى دون نظّارة ؟ أقصد حين تنهض في الليل لقضاء حاجة أو شيء من هذا القبيل ؟

ـ لو حدث لما حكت لأحد منّا . إنّها كتومة جداً وحريصة على أسرارها الصغيرة .

انقلبت ماري جاين على كنبتها :

ـ ها أنتِ ، صباح الخير يا رامونا ! قالت . يا له من ثوب جميل! ووضعت كأسها على الطاولة .

ـ أراهن أنّك ما عدت تذكريني ، يا رامونا .

ـ بلى ، طبعاً تذكرك . مَنْ هي السيدة يا رامونا ؟

ـ ماري جاين ، قالت رامونا وأخذت تحكّ نفسها .

ـ مُذهل ! قالت ماري جاين . رامونا هلاّ أعطيتني قبلة صغيرة؟

ـ كفّي عن هذا ، قالت إيلويزا لرامونا .

فكفّت رامونا عن الحكّ .

ـ هلاّ تعطيني قبلة صغيرة يا رامونا ؟ ردّدت ماري جاين .

ـ لا أحب تقبيل الناس .

تنحنحت إيلويز وسألت :

ـ أين جيمي ؟

ـ إنّه هنـا .

مَنْ هو جيمي ؟ سألت ماري جاين إيلويز .

ـ أوه ! يا ربّي ! إنّه حبيبها . يذهب حيثما تذهب . يفعـل كـل مـا تفعله . شخصان لا ينفصلان .

ـ حقّاً ؟ قالت ماري جاين بشيء من الحماسة .

انحنت الى الأمام :

ـ لديك حبيب يا رامونا ؟

كانت عينا رامونـا خلـف زجـاج النظّـارة السّـميك لا تعكسـان أثـر حماسة ماري جاين .

ـ لقد طرحت ماري جاين عليك سؤالاً يا رامونا ، قالت إيلويز .

دسّت رامونا إصبعاً في أنفها الأفطس الصّغير .

ـ كفى ، قـالت إيلويـز . تسـألك مـاري جـاين عمّـا إذا كـان لديـك حبيب .

ـ أجل ، قالت رامونا وهي لا تزال منهمكة بأنفها .

ـ رامونا ، قالت إيلويز . كُفّي عن هذا الحال . قلتُ في الحال .

فأنزلت رامونا يدها .

ـ حسناً ، أعتقد أنّه أمر رائع ، قـالت مـاري جـاين . مـا اسمُه ؟ هلاّ تقولين لي ما اسمه ، يا رامونا ؟ أم أنّ الأمر سرٌّ كبير ؟

ـ جيمي ، قالت رامونا .

ـ جيمي ؟ أوه ، أعبد هذا الإسم ! جيمي ماذا يا رامونا ؟

ـ جيمي جيميرينو ، قالت رامونا .

ـ إلزمي الهدوء ، قالت إيلويز .

ـ حسناً ، هذا ما أدعوه إسماً ! وأين هو جيمي ؟ هلاّ تقولين لي يا رامونا ؟

ـ هنا ، قالت رامونا .

تلفّتت ماري جاين حولها ثمّ التفتت نحو رامونا بابتسامة . اجتهدت أن تكون الأكثر إغواءً .

ـ هنا ، أين يا عزيزتي ؟

ـ هنا ، قالت رامونا ، أنا ممسكة بيده .

ـ لا أفهم ، قالت ماري جاين لإيلويز وهي تفرغ كأسها بجرعة .

ـ لا تنظري إليّ أنا ، قالت إيلويز .

التفتت ماري جاين نحو رامونا .

ـ آه ، فهمت . جيمي ليس سوى صبيّ صغير من نسج الخيال . مذهل !

وانحنت ماري جاين بمودّة الى الأمام .

ـ كيف حالك يا جيمي ؟ قالت .

ـ لا يريد أن يُكلّمك ، قالت إيلويز . رامونا حدّثي ماري جاين عن جيمي .

ـ له عينان خضراوان وشعر أسود .

ـ وبعد ؟

ـ ليس له أب أو أم .

ـ وبعد ؟

ـ ليس لديه بُقع نمش .

ـ وبعـد ؟

ـ يملك سيفاً .

ـ وماذا بعد ؟

ـ لست أدري ، قالت رامونا ، وأخذت تحكّ نفسها من جديد .

ـ لا بدّ أنّه جميل جداً ! قالت ماري جاين وانحنت أكثر الى الأمام وهي على كنبتها . أخبريني يا رامونا هل خلع جيمي ، هو أيضـاً ، حذاءه المطّاط حين دخلتما ؟

ـ إنّه ينتعل جزمة ، قالت رامونا .

ـ مُذهل ، قالت ماري جاين لإيلويز .

ـ هذا رأيك أنت . أمّا أنا فتُصم أذناي لكثرة ما تتحدّث عنه طوال النهار . جيمي يأكل معها ، يستحم معها وينام معها . هي تنام ممدّدة بطولها على جهة واحدة من السّرير لكي لا تنقلب عليه وتؤذيه .

كانت ماري جاين مستغرقة فيما يروى لها وتبدو عليها علامات الغبطة فامتصّت شفتها العليا قليلاً ثم فمها وسألت :

ـ ومن أين له هذا الإسم ؟

ـ جيمي جيميرينو ؟ ربّك وحده يعلم .

ـ الأرجح أنّه إسم صبيّ في الجوار ؟

ـ لا يوجد صبيةٌ صغار في الجوار . ولا طفل واحد . فهم يلقّبونني لاغتيابي بفاني البيوضة ...

ـ أمي ، قالت رامونا ، هل أستطيع أن أخرج لألعب .

نظرت إيلويز إليها .

ـ ولكنّك عدت لتوّك الى البيت ، قالت .

ـ جيمي يريد أن يخرج مرّة أخرى .

ـ وهل أستطيع أن أسألك عن السبب ؟

ـ لقد نسي سيفه في الخارج .

ـ آه منه ومن سيفه اللعين ، قالت إيلويز . حسناً ، هيّا أخرجي ولكن انتعلي حذاءك المطّاط .

ـ هل أستطيع أن آخذ هذه ؟ قالت رامونا وهي تأخذ عود ثقاب مقدوحاً من المنفضة .

ـ هل أستطيع أن آخذ هذا ؟ أجل لا تلعبي في الشارع ، لو سمحتِ .

ـ إلى اللقاء يا رامونا ! قالت ماري جاين بصوتٍ عذب .

ـ لقاء ، قالت رامونا ، تعالَ يا جيمي .

نهضت إيلويز فجأة وانتصبت واقفة .

ـ ناوليني كأسك ، قالت .

ـ لا ، بجدّ . يا إل . كان ينبغي أن أكون في لارتشمونت الآن . أقصد ، أنّ السيد وييتبرغ على درجةٍ كبيرة من اللطف ، وأكره أن ...

ـ اتصلي به وقولي له بأنك قُتِلتِ لتوك . هيّا أعطني الكأس اللعينة .

ـ لا ، بجدّ يا إل . أؤكد لك ، سوف يزداد الصّقيع وسيارتي ليست مجهّزة . أؤكد لك ، لو أنّي ...

ـ ليكن الجليد . إذهبي واتصلي به هاتفياً . قولي له إنّك ميتة ، قالت إيلويز . أعطني هذه .

ـ حسناً ... أين الهاتف ؟

ـ ما بالكِ ، قالت إيلويز وهي تحمل الكأسين الفارغتين في اتجاه غرفة الطعام . إنّه هنا !

توقّفت فجأة عند رُقاقة الصّفيح الطويلة التي تفصل ردهة الجلوس عن الطعام وجعلتها تصر تحت قدميها . فضحكت ماري جاين ضحكة عصبية .

ـ أقصد أنّك لم تعرفي والت معرفة وثيقة ، قالت إيلويز .

كانت الساعة الخامسة إلاّ ربعاً . كانت مستلقية على ظهرها على الأرض ، والكأس موضوعة بتوازن على صدرها النّحيل .

ـ إنّه الفتى الوحيد الذي عرفته والذي كان يعرف جيداً كيف يُضحكني . أقصد كيف يُضحكني فعلاً .

نظرت الى ماري جاين .

ـ أتذكرين تلك الليلة . سنة تخرّجنا ، حين دلفت تلك المعتوهة ، لويز هرمانسون ، إلى غرفتنا بصدريتها السوداء التي ابتاعتها من شيكاغو؟

أشارت ماري جاين بابتسامة إلى أنّها تذكر ذلك . كانت ممدّدة على بطنها وذقنها الى ذراعها قُبالة إيلويز . وكان كأسها على الأرض في متناول يدها .

ـ هكذا بالضبط ، كان يعرف كيف يجعلني أضحك ، قالت إيلويز. كان يجعلني أضحك لمجرّد أن يكلّمني . وكان يجعلني أضحك حين يتّصل بي هاتفياً ، حتى أنّه يجعلني أضحك برسائله . والأهم أنّه لم يكن يحاول أن يكون ظريفاً . كان ظريفاً ، هذا كلُّ ما في الأمر .

أدارت رأسها قليلاً نحو ماري جاين .

ـ هيه ، هل يزعجك أن تناوليني سيكارة ؟

ـ ليست في متناول يدي !

ـ أوه ، تبّاً !

عادت إيلويز تتأمّل السّقف .

ـ ذات مرّة ، قالت ، وقعت . كنت في العادة أنتظره عند موقف الباص ، عند مخرج البي أكس تماماً ، وفي إحدى المرّات وصل متأخراً ، وصل في اللحظة التي انطلق فيها الباص . فرحنا نركض وراءه فوقعت والتوت رِجْلي . فقال :" رَجُلي المخلّع المسكين "* . كان يتحدث عن رِجْلي وسمّاها :" رِجُلي المخلّع المسكين ".

الله ، كم كان ظريفاً .

ـ ألا يتمتّع لو ، هو أيضاً ، بحسّ الفكاهة ؟ قالت ماري جاين .

ـ ماذا ؟

ـ ألا يتمتّع لو ، هو أيضاً ، بحسّ الفكاهة ؟

ـ أوه ، يا إلهي ، مَنْ يدري ؟ بلى ، أعتقد ذلك . فهو يضحك حين يشاهد الرسوم المتحركة والأشياء الأخرى المماثلة .

رفعت إيلويز رأسها وتناولت كأسها الموضوعة على صدرها واحتست جرعة منه .

---

* العبارة هنا تقوم على التلاعب على معنى كلمتين مختلفتين في الفرنسية . الظّفر (ongle) والعم (Oncle) . والأصل (Uncle) (عم) و (ankle) (رسغ القدم) ، وللحفاظ على تناسب التلاعب لفظاً اخترنا رِجْل (ankle) ورَجُل (uncle) .

ـ على أيّة حال ، قالت ماري جاين ، هذا ليس كل شيء في الحياة . أؤكد لك ، ليس كل شيء .

ـ ما هو الذي ليس كل شيء ؟

ـ أوه ، تعلمين : الضحك والأشياء المماثلة .

ـ ومن قال إنّه ليس كل شيء ؟ قالت إيلويز . إسمعي ، حين لا ترغب إحدانا في أن تكون على وشك الرهبنة أو أي شيء آخر من هذا القبيل فالأفضل أن تضحك .

ضحكت ماري جاين بعصبيّة .

ـ أنت فظيعة ، قالت .

ـ آه ، يا إلهي ، كم كان لطيفاً ، قالت إيلويز . كان في الوقت نفسه بالغ الطرافة وبالغ الرقّة . ولكنّها ليست من طراز رقّة الفتيان الصغار ، لا . كانت رقّة بالغة الخصوصيّة . أو تعلمين ماذا فعل ذات نهار ؟

ـ لا ، لا ، قالت ماري جاين .

ـ كنّا في قطار ترنتون في طريق عودتنا الى نيويورك . وكان ذلك بعد وقت قصير من تطوعه في الجيش . كان الجو بارداً في المقصورة فبسطت معطفي علينا . وأذكر أنّني كنت أرتدي سترة جويس مورو . أتذكرين تلك السترة الزرقاء التي كانت ترتديها ؟

هزّت ماري جاين برأسها إيجاباً ، ولكنّ إيلويز لم تكن تنظر إليها لترى جوابها .

ـ إذن ، كانت يده على بطني ، تعلمين ، أقصد شيئاً من هذا القبيل . المهم ، أنّه قال لي فجأة بأنّ بطني جميل جداً بحيث كان يود لو

يصعد ضابط الى المقصورة ويأمره بمد يده الأخرى من الشباك . وقال إنّه يريد أن يفعل الأمور بإخلاص . وبعد ذلك سحب يده وقال لمفتش التذاكر أن يستقيم بوقفته . وقال له إنّ ما لا يستطيع تحمّله أن يرى رجلاً لا يبدو أنّه فخور ببزّته . واكتفى مفتّش التذاكر بأنْ قال له بأنْ يعود الى النوم .

فكّرت إيلويز للحظة ثم قالت :

ـ لم يكن الأمر يتعلّق دائماً بما يقول ، بل بطريقته في قوله ، هل تفهمين .

ـ وهل حدّثتِ لو عنه ؟ أقصد ، هل حدث أن فعلتِ ؟

ـ أوه ، قالت إيلويز ، ذات مرّة حاولت أن أحدثه عنه وما أنْ بدأت فإنّ أول ما سألني إياه هو عن رتبته .

ـ وما كانت رتبته ؟

ياه ! قالت إيلويز .

ـ لا ، أقصد فقط أنْ أقول ...

وفجأة انفجرت إيلويز بالضحك ، بالقهقهة .

ـ أتعلمين ماذا قال ذات يوم ؟ قال إنّه يشعر بأنّه يتقدّم في الجيش ولكنْ في اتجاه يختلف عن ذاك الذي يسلكه الآخرون . كان يقول إنّه بهذه الطريقة حين يصبح جنرالاً يكون أصبح عارياً تماماً . وأنّ كل ما سيرتديه آنذاك هو شارة سلاح المشاة ملصوقاً على السترة .

نظرت إيلويز الى ماري جاين التي لم تكن تضحك .

ـ ألا تجدينه ظريفاً ؟

ـ بلى . ولكن فقط ، لماذا لا تحدثين لو عنه ، أقصد من حين لآخر ؟

ـ لماذا ؟ لأنّه على قدر فظيع من الحمق ، هذا هو السبب ، قالت إيلويز ، وفي أي حال ، إسمعيني جيداً ، أيتها الفتاة العاملة . إذا ما تزوجتِ مرّة ثانية احرصي على أن لا تخبري زوجك بشيء ، هل سمعتِ ؟

ـ لماذا ، قالت ماري جاين .

ـ لأنّني أقول لك هذا ، هذا هو السبب ، قالت إيلويز . ما يريدونه هو أنْ يصدّقوا أنّك تقضين عمرك وأنت تتقيئين كلما اقترب منك شاب . أنا لا أمازحك ، صدّقيني . أوه ، في إمكانك أن تخبريهم بأي شيء . ولكنْ لا تكوني صادقة على الإطلاق . وأقول بوضوح ، لا تكوني صادقة أبداً . فإذا ما أخبرتهم بأنّك عرفتِ فتىً وسيماً ، ذات مرّة ، يتوجّب عليك أن تقولي لهم قبل أن تتمالكي أنفاسك أنّه كان وسيماً جداً تقريباً . وإذا أخبرتهم بأنّك صادقت فتىً ذكياً فيتوجّب عليك أن تقولي عندئذٍ إنّه نوع من العبقري الذي يعرف كل شيء أو نوع من الداهية الحاد الذكاء . وإلا أقلقوك بما رويته لهم كلما سنحت لهم الفرصة .

توقفت إيلويز عن الكلام واحتست جرعة من كأسها وهي مستغرقة في ما قالته .

ـ أوه ، قالت ، في إمكانهم أن يصغوا جيداً وبانتباه وكل شيء . وتبدو عليهم علامات التفهّم العميق . ولكنّها مجرد خدعة . صدّقيني . فإذا ما وثقت بتفهمهم ولو قليلاً لك أن تغالبي الألف ميتة ، صدّقي كلامي .

رفعت ماري جاين ، وقد بدا عليها الوجوم ، ذقنها من فوق مسند الكنبة.وللتبديل فقط وضعته على ذراعها . كات تفكّر في نصيحة إيلويز .

ـ لا تستطيعين القول بأنّ لو غبيّ ، قالت وهي ترفع صوتها .

ـ مَنْ لا يستطيع ؟

ـ أقصد أنّه رجل ذكي ، أليس كذلك ؟ قالت ماري جاين بنبرة ساذجة .

ـ آه ، ماذا يجدي أن نتحدّث بالأمر ؟ قالت إيلويز . لندع هذا ، لأنني لن أفعل سوى أنْ أكذّب أوهامك . أسكتيني .

ـ إسمعي . لماذا تزوجته إذن ؟ قالت ماري جاين .

ـ آه ، يا إلهي ! لست أدري . قال إنّه يعبد جاين أوستن . وقال لي إنّ كتبها تعني له الكثير . هذا بالضبط ما كان يقوله . واكتشفت بعد الزواج أنّه لم يقرأ سطراً واحداً من هذه الكتب . أوتعلمين من هو كاتبه المفضّل ؟

هزّت ماري جاين رأسها بالنفي .

ـ ل . ماينغ فاينس ، أتعرفينه ؟

ـ لا ...

ـ ولا أنا . ولا أحد يعرفه في أي حال ، لقد ألّف كتاباً عن قصّة أربعة رجال قضوا جوعاً في ألاسكا . لم يعد لو يذكر عنوانه ، لكنّه الكاتب الأروع تأليفاً لم يقرأ مثله في حياته . يا ربّي ! حتى أنّه لا يمتلك قدراً كافياً من الصّدق مع النفس ليقول صراحة إنّه أحب هذا الكتاب لأنه يروي قصّة أربعة أشخاص قضوا جوعاً في كوخ من الثلج أو شيء من هذا القبيل ، لذلك يقول إنّه مكتوب بروعة .

ـ أنت لا تكفّين عن توجيه الانتقادات ، قالت ماري جاين . أؤكّد لك ، أنت تهدرين وقتك في توجيه الانتقادات . فقد يكون ، برغم كل شيء، رجلاً طيباً ...

ـ صدقيني ، لا يمكن أن يكون كذلك ، قالت إيلويز .

وفكرت لبرهة ثم أردفت قائلةً :

ـ على الأقل ، أنت لديك عملك . أتفهمينني ، على الأقل ...

ـ ولكنْ إسمعي قليلاً ، قالت ماري جاين . ألا تفكّرين أنّك ستخبرينه ، يوماً ما ، بأنّ والت قد قُتل ؟ أقصد ، أنّه لما أحسّ بالغيرة لو أنّه علم بأن والت قد ... أخيراً ، تعرفين ماذا أقصد . أنّه قُتِلَ وكل شيء .

ـ أوه ، مدهش ، أيّتها الفتاة الصغيرة ـ المسكينة ـ التي ـ تعمل، قالت إيلويز ، هنا الطّامة الكبرى . وعندما يتحوّل الى مصّاص دماء . إسمعي كل ما يعرفه هو أنّني كنت أصادق شاباً يُدعى والت . أحد جنود القبّعات الخضر الذي كان يجيد استخدام الجناس . إنّ آخر ما ينبغي أن أفعله هو إبلاغه بأنّه قُتِل . آخر شيء فعلاً ! وحتى لو قلت له ـ ولن أفعل ذلك أبداً ـ ولكن حتى لو قلت له ، لكي تتمّ الحكاية ، فسأقول له بأنّه قُتِل في المعركة .

أبعدت ماري جاين ذقنها قليلاً على ساعدها .

ـ إل ... ، قالت .

ـ أجـل ؟

ـ لماذا لا تريدين أن تخبريني كيف قُتِل ؟ أقسم لك بأنّني لن أخبر أحداً . أرجوكِ .

ـ لا .

ـ أرجوكِ . أقسم لك ، لن أخبر أحداً .

أنهت إيلويز كأسها وأعادته الى مكانه فوق صدرها .

ـ سوف تخبرين آكيم تاميروف بكل هذا ، قالت .

ـ لا ، أؤكد لك ! لن أخبر أحداً بـ ...

ـ أوه ، قالت إيلويز . كانت فرقته متمركزة في مكان ما . كان وقت استراحة بين عمليتين أوشيء من هذا القبيل ، هذا ما رواه لي رفيقه حين كتب لي رسالة . كان والت يحاول ، في رفقة فتىً آخر ، توضيب مدفأة يابانية صغيرة . إذ أراد أحد الكولونيلات أنْ ينقلها الى منزله في الوطن . أو أنّهما كانا يوضبان الطّرد لا أذكر بالضبط . المهم أنّ المدفأة كانت ملآنة بالوقود والمشاقة فانفجرت في وجهيهما . الفتى الآخر فَقَدَ إحدى عينيه فقط .

جعلت إيلويز تبكي وأحاطت كأسها الفارغة براحة يدها لكي لا تقع عن صدرها .

انسلت ماري جاين عن الكنبة . وجرجرت على ركبتيها بضع خطوات في اتجاه إيلويز وراحت تداعب شعرها .

ـ لا تبكي يا إل . لا تبكي .

ـ مَنْ يبكي ؟ قالت إيلويز .

ـ أعرف ولكنْ لا تبكي . أؤكد لك ، البكاء لن يبدّل شيئاً .

فتح باب المدخل .

ـ إنّها رامونا ، قالت إيلويز وهي تنشج . هلاّ أسديت لي خدمة . إذهبي إلى المطبخ وقولي لمن يكون هناك أن يجهّز لها طعام العشاء باكراً. هلاّ فعلت ؟

ـ حسناً ، ولكن عديني بأنّك ستتوقفين عن البكاء .

ـ أعدك . هيّا اذهبي . لا أرغب الآن في الدخول الى هذا المطبخ اللعين .

نهضت ماري جاين بعد أن اختلّ توازنها ثم استعادته وغادرت الغرفة .

في غضون دقيقتين عادت . وكانت رامونا تركض أمامها . كانت رامونا تركض وتضرب الأرض بجماع قدميها لإحداث أكبر ضجّة ممكنة بنعليها المطاطين المحلولي الرباط .

ـ إنّها لا تريد أن أنزع نعليها ، قالت ماري جاين .

كانت إيلويز تتمخّط وهي مستلقية على الأرض ، خاطبت رامونا من خلال منديلها .

ـ أخرجي من هنا وقولي لغريس بأنْ تنزع لك نعليك . أنتِ تعلمين أنّه يُمنع عليك الدخول إلى ...

ـ إنّها في دورة المياه ، قالت رامونا .

أبعدت إيلويز منديلها ورفعت جذعها لكي تجلس .

ـ هاتي قدمك ، قالت . إجلسي أولاً ، أرجوك . لا ، ليس هنا ... يا ألله !

كانت ماري جاين على ركبتيها تبحث عن سكائرها تحت الطاولة.

ـ ولكن . خمّني ماذا حلّ بجيمي ؟ قالت .

ـ ليس لديّ أدنى فكرة . القدم الثانية . لا ، القدم الثانية .

ـ لقد دعسته سيارة ، قالت ماري جاين . أليس الأمر مأساوياً ؟

ـ لقد رأيت سكيبر يحمل عظمة بين فكيه ، قالت رامونا لإيلويز .

ـ ماذا حلّ بجيمي ؟ سألت إيلويز .

ـ لقد دعسته سيارة ومات . ورأيت سكيبر يحمل عظمة ولم يشأ

ـ دعيني أرى جبينك قليلاً ، قالت إيلويز .

مدّت يدها وتحسّست جبين رامونا .

ـ يبدو أنّك مصابة بحمّى خفيفة . إذهبي واطلبي من غريس أن تطعمك عشاءك فوق . وبعد ذلك تذهبين فوراً الى السرير . وسألحق بك بعد قليل . إذهبي الآن ، أرجوك ، وخذي معك نعليك .

غادرت رامونا الغرفة بخطى واسعة وبطيئة .

ـ ناوليني واحدة ، قالت إيلويز لماري جاين . سنشرب كأساً أخرى .

ناولت ماري جاين إيلويز سيكارة .

ـ في أيّة حال إنّها حكاية فعلاً ! حكاية جيمي هذا ! يا لها من مخيّلة !

ـ م م م . سوف تحضّرين الشراب ، أليس كذلك ؟ هاتي القنينة معك ... لا أريد أن أذهب إلى هناك . كل هذا المنزل اللعين تنبعث منه رائحة عصير البرتقال .

بعد الساعة السابعة بدقائق رنّ جرس الهاتف . نهضت إيلويز عن المقعد خلف النافذة وتلمّست بيدها بحثاً عن حذائها في العتمة . ولمّا لم تعثر عليه مشت بجوربيها نحو الهاتف بخطى هادئة ومتباطئة أحياناً . لم يوقظ الجرس ماري جاين التي كانت تغفو ممدّدة على بطنها على الكنبة .

ـ آلو ، قالت إيلويز دون أنْ تضيء الغرفة . إسمع ، لا أستطيع أنْ آتي لاصطحابك . ماري جاين هنا . سيارتها مركونة أمام بوابة المنزل تماماً ضيّعت مفاتيحها . لا أستطيع أن أخرج . لقد فتّشنا طوال عشرين دقيقة في هذا الشيء الذي ، ماذا تسمّونه ، الثلج والأشياء الأخرى . قد

تستطيع أن تطلب من ديك أو ميلدريد إيصالك إلى البيت . (أصغت) . أوه ، إنّه أمر مزعج يا بطّتي . إسمع . لماذا لا تشكّلون ، أنتم الرجال ، مفرزة نظامية لتعودوا الى منازلكم في صفوفٍ . وفي استطاعتكم أن تصرخوا بهذا الذي تسمّونه ، " واحد إثنان ، واحد إثنان " ؛ فيكون لمسيرتكم أطيب الأثر .

أصغت من جديد .

ـ لستُ غريبة الأطوار ، قالت . أؤكد لك ، لا أبداً . إنّه مجرّد مزاج سيء .

أعادت السّماعة .

عادت بخطى أقل ثباتاً الى غرفة الجلوس . وعلى المقعد ، أمام النافذة ، سكبت في كأسها ما تبقّى من قنينة الويسكي . أقل من جرعة واحدة . فأفرغتها في فمها وارتعشت وجلست .

عندما أضاءت غريس صالة الطعام انتفضت إيلويز مذعورة . ودون أن تنهض صرخت عليها :

ـ لا داعي لأن تجهّزي المائدة قبل الثّامنة يا غريس . فالسيد ونغلر سيصل متأخراً بعض الشيء .

بدت غريس واقفة في ضوء صالة الطعام ولم تتقدّم خطوة واحدة.

ـ أوه ، قالت غريس ، يا سيدة ونغلر هل تسمحين بأنْ أدع زوجي يقضي الليلة هنا . لديّ متسع في غرفتي وهو ليس مجبراً على العودة إلى نيويورك قبل صباح الغد . والطقس رديء جداً .

ـ زوجك ؟ أين هو ؟

ـ أوه ، إنّه في المطبخ الآن .

ـ حسناً ، أخشى أنّه لا يستطيع أن يقضي ليلته هنا ، يا غريس .

ـ سيدتي ؟

ـ قلتُ لك أخشى أنّه لا يستطيع أن يقضي الليلة هنا . أنا لا أدير فندقاً .

مكثت غريس واقفة لهنيهة بلا حراك ثم قالت :

ـ حسناً يا سيدتي وعادت إلى المطبخ .

غادرت إيلويز ردهة الجلوس وصعدت السلّم المضاء بنور خفيف مصدره صالة الطعام . كان أحد نعلي رامونا ملقى على صحن الدرج فلمّته إيلويز ورمت به ، بكل قوّتها من فوق الدرابزين فتدحرج بعنف على أرضيّة الطابق السفلي .

أضاءت النور في غرفة رامونا وأبقت إصبعها ثابتة على مفتاح الضوء . مكثت جامدةً للحظات تنظر إلى رامونا وبعد أنْ أنزلت يدها عن المفتاح توجّهت الى السرير بخطى متسارعة .

ـ رامونا ، استيقظي ، استيقظي !

كانت رامونا تغفو بدَعةٍ على أحد طرفي السرير ، إليتها اليمنى الى الخارج ونظّارتها مطوية بعناية ، زجاجها إلى الأعلى ، على منضدة صغيرة تزيّنها رسمة دونالد دوك .

ـ رامونا !

استيقظت الطفلة وهي تشهق شهقاتٍ متسارعة . فتحت عينيها على وسعهما ولم تلبث أن أغمضتهما .

ـ أمي ؟

ـ كنتُ أعتقد ، كما أخبرتني ، بأنّ جيمي جيميرينو دعسته سيارة ومات .

ـ مـاذا ؟

لقد سمعت جيداً ، قالت إيلويـز . لمـاذا تنـامين هكذا علـى طـرف السرير ؟

ـ لأنّ ، قالت رامونا .

ـ لأنّ ماذا ؟ رامونا ، لستُ في مزاج ...

ـ لأنّني لا أريد أن أؤذي ميكي .

ـ مَنْ ؟

ـ ميكي ، قالت رامونا وهي تفرك أنفها ، ميكي ميكيرانو .

شرعت إيلويز في الصراخ .

ـ عودي الى وسط السرير ! هيّا !

لم تفعل رامونا الخائفة سوى أن نظرت الى والدتها .

ـ حسناً !

أمسكت إيلويـز بعرقوبـيّ رامونـا وأعادتهـا وهــي ترفعهـا قليـلاً وتجرّها قليلاً الى وسط السرير . ورامونـا لـم تقـاوم ولـم تنتحـب . تركتهـا تفعل وهي بلا حراك ولكنّها لم تستسلم لها .

ـ والآن ، سـتنامين ، قـالت إيلويـز بصـوت متقطّـع مـن التعـب . أغمضي عينيك ... أتسمعين ، أغمضي عينيك .

أغمضت رامونا عينيها .

اتجهت إيلويز الى مفتاح الضوء وأطفأتـه . ومكثـت طويـلاً علـى العتبة . ثم فجأة هرعت فـي العتمـة الـى الداخـل نحـو المنضـدة ، فصدمـت

ركبتها بحافة السرير ولم تشعر بالألم لشدة انهماكها . تناولت نظّارة رامونا في يديها الإثنتين ووضعتها على خدها . ودموعها تسيل تبلل زجاج النظّارة." مسكين أيها الرَّجُل المُخلّع العجوز ، كانت تردد ، مسكين أيها الرَجُل المُخلّع العجوز ". ثم أعادت النظّارة الى مكانها على المنضدة ، زجاجها الى الأسفل .

انحنت ، إذ فقدت توازنها ، وتلمّست أغطية السرير. كانت رامونا صاحية تبكي منذ وقت . قبّلتها إيلويز برقّةٍ على فمها وأزاحت لها شعرها الذي يغطي عينيها ، ثم غادرت الغرفة .

هبطت السّلم هذه المرة وهي تترنح صراحة ، وأيقظت ماري جاين .

ـ مَنْ ذا هذا ؟ من هذا ؟ هوه ! قالت ماري جاين وهي تستقيم جالسة على الكنبة .

ـ ماري جاين ... إسمعي ، أرجوكِ ، قالت إيلويز منتحبة . أتذكرين السنة الأولى ، في المدرسة ، وكنت أرتدي ذلك الفستان البني والأصفر وكنت اشتريته من بوميز ، فقالت لي ميريام بأنّ لا أحد في نيويورك يرتدي مثله فبكيتُ طوال الليل ؟.

هزّت إيلويز ساعد ماري جاين بعنف .

ـ كنت فتاة طيّبة ، قالت . أليس كذلك ؟

اليــوم المُرتجـى لسَمك المَـوز

كانوا سبعة وتسعين صحافياً في الفندق من نيويورك . وكانوا يشغلون الخطوط الهاتفية بين المقاطعات ، وعلى المرأة الشّابة التي تقيم في الغرفة رقم ٥٠٧ أن تنتظر من الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى الثانية والنصف لتحظى باتصالها الهاتفيّ. ولم تهدر وقتها في الانتظار متبطّلة . قرأت مقالة في مجلّة نسائية رائجة بعنوان :" الجنس ، إنّه الفردوس أو الجحيم ". واستخدمت مشطها وفرشاتها . وأزالت بقعة عن تنّورة التايور البيج . ونقلت زرار بلوزتها التي اشترتها من محلات ساكس . ونزعت شعرتين برزتا من جديد في شامتها . وعندما اتصل بها المقسّم أخيراً كانت جالسة على حافّة النّافذة تنهي طلاء أظافر يدها اليسرى .

لم تكن امرأة من النّوع الذي يخضّه منبّه الهاتف . بل تتصرّف وكأنّ الهاتف لم يتوقّف عن الرّنين منذ أن بلغت سنّ الحيض .

وكانت تنهي طلاء خنصرها ، والهاتف يرنّ ، حريصة على دقّة التزام أطرافه . بعد ذلك غطّت الحنجور ونهضت وهي تنفض يدها لكي تجفّف الطلاء . وبيدها الشّاغرة ــ اليمنى ــ حملت منفضة سكاير ملآنة من حافّة النّافذة ووضعتها على المنضدة قرب سريرها جانب الهاتف . جلست على طرف أحد السّريرين المزدوجين و ــ بعد خمس رنّات أو ست ــ رفعت السّماعة .

ــ آلو ! قالت وهي تحرص على يدها اليسرى بعيدة عن ثوبها الخفيف من الحرير الأبيض .

كان هذا ما ترتديه إضافة الى خفّيها . أمّا خواتمها فبقيت في الحمّام .

قال لها المقسّم :

ـ خط نيويورك يا سيدة غلاس .

ـ شكراً ، قالت المرأة الشّابة ، ثـم تدبّـرت مكانـاً ملائمـاً لمنفضـة السكاير على المنضدة .

ثم سُمِع صوت نسائي :

ـ موربيل ، أهذه أنت ؟

أبعدت المرأة الشّابة السماعة عن أذنها .

ـ أجل يا أمي ، كيف حالك ؟

ـ لقد متّ فزعاً ! لماذا لم تتصلي ؟ أكل شيء على ما يرام ؟

ـ حاولت الاتصال بك أمس وقبل أمس ، ولكن الهاتف هنا ...

ـ أكل شيء على ما يرام يا موربيل ؟

زادت المرأة الشّابة المسافة التي تفصل السّماعة عن أذنها .

ـ لا بأس . الطقس قائظ . إنّه اليوم الأشدّ قيظاً في فلوريدا منذ...

ـ لماذا لم تتصلي ! انشغلت عليك !

ـ أمـي ، حبيبتـي ، لا تصرخـي هكـذا ، اسـمعك جيـداً . اتصلـت مرّتين مساء البارحة . أول مرّة كانت مباشرة بعد ...

ـ قلت لوالدك إنّك ستتصلين . ولكـن لا ... كـان ينبغـي ... أكـل شيء على ما يرام يا موربيل ؟ أصدقيني القول .

ـ أنا بخير . توقّفي عن هذا السؤال ، أرجوكِ.

ـ متى وصلتما ؟

ـ ما عدت أذكر . الأربعاء صباحاً ، في ساعة مبكرة .

ـ مَنْ كان يقود السيارة ؟

ـ هو ، قالت المرأة الشّابة . لا تغضبي . قاد السيارة مثل ملاك . وكنت سعيدة جداً .

ـ هو الذي قاد السيارة ! ولكنك وعدتني يا موربيل ...

قاطعتها المرأة الشّابة وقالت :

ـ قلت لك ، كان مثل ملاك . أؤكد لك لم يتجاوز سرعة الثمانين طوال الطريق .

ـ هل عاود مسرحياته المعهودة مع الأشجار ؟

ـ أكرر لك أنّه كان مثل ملاك . إسمعي يا أمي ، أرجوكِ... طلبت منه أن ينتبه الى الخطوط الصفر وكل شيء وفهم ونفّذ ما قلته له . حتى فعل ما في وسعه ليتجنّب النّظر الى الأشجار ، أؤكد لك . وهل أنجز أبي تصليح السيارة ؟

ـ ليس بعد . طلبوا منه ٤٠٠ دولار من أجل ...

ـ أمي ، سيمور قال لوالدي إنّه سيدفع . ليس هناك ما يدعو ...

ـ حسناً ، سوف نرى ، كيف كان بالضبط في الرحلة وفيما بعد ؟

ـ جيداً جداً ، قالت المرأة الشّابة .

ـ أما زال يطلق عليك ذلك الإسم الرّهيب ...

ـ لا ، ابتكر شيئاً جديداً الآن .

ـ ماذا ؟

ـ آه ... وما المهم في ذلك يا أمي ؟

ـ موربيل أريد أن أعرف . والدك ...

ـ حسناً ، حسناً ، يسميني " ملكة التسكّع الأخلاقي لعام ١٩٤٨ "، قالت المرأة الشّابة بضحكة عصبيّة عاجلة .

ـ ليس في ذلك ما يدعو الى الضحك يا موريبيل . ليس مضحكاً على الإطلاق . إنّه شيء فظيع . إنّه كئيب ، هذا كل ما في الأمر . عندما أفكّر أنّه ...

قاطعتها المرأة الشّابة :

ــ أمي ، إسمعي ، أتذكرين ذلك الكتاب الذي أرسله إليّ من المانيا؟ أنت تذكرين ، كتاب القصائد الألمانية ؟ ماذا فعلت به ؟ ما عدت أذكر مهما حاولت ...

ـ ما زال عندك .

ـ أنت متأكّدة ؟ قالت المرأة الشّابّة .

ـ بالطبع . أعني ما زال عندي . إنّه في غرفة فريدي . كنت تركته هناك لم يبقَ هناك مكان في ... لماذا تسألين ؟ هل يريد استرداده ؟

ـ لا . فقط في الرحلة سألني عنه ، ماذا حلّ به . وأراد أنْ يعرف هل قرأته .

ـ لكنّه بالألمانية !

ـ أعرف يا أميمتي ، ذلك لا يبدّل من الأمر شيئاً . قالت المرأة الشّابّة هذا وهي تضع ساقاً على ساق . قال لي إنّ هذه القصائد كتبها شاعر العصر الكبير الأوحد . وكان ينبغي أن اشتري ترجمة لها أو شيئاً من هذا القبيل . أو حتى أنْ أتعلّم اللغة الألمانية ، تخيّلي !

ـ إنّه أمر فظيع . فظيع ! وكئيب هذا ما أراه ... كان والدك يقول لي مساء البارحة بالذات ...

ـ لحظة واحدة يا أمي ، قالت المرأة الشّابّة . وذهبت الى علبة سكائرها على حافّة النّافذة ، أشعلت واحدة وعادت لتجلس على طرف السرير . وقالت وهي تنفث سحابة :

ـ أمي ؟

ـ موريبل ، إسمعيني الآن .

ـ أسمعك .

ـ لقد حدّثني والدك عن الدكتور سيفيسكي .

ـ آه ، قالت المرأة الشّابّة .

ـ لقد حكى له كل شيء . على الأقل هو يقول إنّه أخبره كل شيء ، أنت تعرفين والدك جيداً . الأشجار وتلك القصّة عن النّافذة . وتلك الفظاعات التي كان يرويها لجدّتك حول ما يعتزم فعله في الحياة الآخرة . وماذا فعل برسومات برمود الجميلة ... أخبره كل شيء!

ـ وماذا إذن ؟ سألت المرأة الشّابّة .

ـ عندها قال له الطبيب إنّ الجيش ارتكب جريمة فعليّة عندما سمح له بالخروج من المستشفى . وأقول لك الصدق إنّه أخبر والدك ـ جازماً ـ أنّه في الأغلب ـ في الأغلب المرجّح قال ـ لن يلبث سيمور أن يفقد عقله كلياً . أقول لك الصدق .

ـ أعرف طبيباً مختصاً بالأمراض النفسيّة ، هنا ، في الفندق ، قالت المرأة الشّابّة .

ـ مَنْ هو ؟ ما اسمه ؟

ـ لا أعلم . إسمه رايزر أو ربّما شيء من هذا القبيل . ويبدو أنّه طبيب ماهر .

ـ لم أسمع عنه من قبل .

ـ ومع ذلك يبدو أنّه جيد جداً .

ـ لا تكوني فظّة يا موربيل ، أرجوكِ . نحن قلقان عليك حقاً ! وأريد أن أقول لك أنّ والدك فكّر ليلة أمس أن يبرق إليك لعودتك الفوريّة...

ـ ليس وارداً عندي أن أعود يا أمي ، فكفّي عن مناكفة نفسك .

ـ موربيل ، لا أكذب عليك . الدكتور سيفيسكي قال إنّ سيمور قد يفقد كلياً ...

ـ لم أكد أصل بعد ، يا أمي . إنّها عطلة لي منذ سنوات . وليس في نيّتي أن أحمل حقائبي الآن وأعود . وفي أيّة حال لا أعتقد بأنّني قادرة على السفر الآن . أنا مصابة بحروق جلدية من حمّامات الشمس ! ولا أكاد أقوى على الحراك من مكاني .

ـ ضربة شمس ؟ لماذا لم تستخدمي الزيت الواقي الذي وضعته في حقيبتك ؟ لقد وضعته مع ...

ـ لقد استعملته ومع ذلك أصبت بحروق .

ـ إنّه أمر فظيع . أين أصبت بالحروق ؟

ـ في كل مكان ، يا أميمتي ، في كل مكان .

ـ يا للفظاعة !

ـ لكنّني سأحيا .

ـ أخبريني ، هل تكلّمت مع ذلك الطبيب ؟

ـ أجل ، بطريقة ما ، قالت المرأة الشّابّة .

ـ ماذا قال ؟ وأين كان سيمور عندما حدّثته ؟

ـ في " صالة أوسيان " . كان يعزف على البيانو . فهو منذ وصولنا ، طوال ليلتين متتاليتين ، لم يتوقّف عن العزف على البيانو .

ـ إذن ، ماذا قال الطبيب ؟

ـ لم يقل الشيء الكثير . تكلّم هو أولاً . كنت جالسة في جواره ، مساء أمس ، أثناء جولة من لعبة البنغو ، وسألني هل الذي يعزف في الصّالة المجاورة هو زوجي . وقلت له إنّه زوجي ، وسألني هل سيمور يعاني مرضاً أو أي شيء من هذا القبيل ، فقلت له عندها ...

ـ لماذا طرح عليك هذا السؤال ؟

ـ من اين لي أن أعرف يا أمي . ربّما لأنّه يبدو شاحباً ، وكل الأشياء الأخرى ، قالت الفتاة . باختصار ، بعد جولة البنغو دعاني هو وزوجته لتناول شراب ما معهما . فقبلت الدعوة . زوجته فظيعة . أتتذكّرين ثوب السهرة الأسود الذي رأيناه في واجهة " بونوايت " ؟ ذلك الثوب الذي كنت تقولين إنّ على من يرتديه أن يكون صغيراً ...

ـ الثّوب الأخضر ؟

ـ كانت ترتديه ... ولها وركا سيدة رومانية ! ولم تكف ، طوال السهرة ، عن سؤالي عن سوزان غلاس ، مصممة الأزياء تلك التي تعمل في جادّة ماديسون ، عمّا إذا كانت من أقرباء سيمور ؟

ـ ولكن الطبيب ، ماذا قال الطبيب ؟

ـ أوه ، أحسب أنّه في النهاية لم يقل أشياء مفيدة . أعني أنّنا كنّا في البار آنذاك ، وكل شيء . والضوضاء لا تحتمل .

ـ طبعاً ، ولكن هل ... هل أخبرته ماذا حاول أن يفعل بكرسي جدّتك .

ـ لا ، يا أمي ، لم أتطرّق كثيراً الى التفاصيل ، قد تتاح لي فرصة وأخبره كل شيء . فهو يقضي معظم أوقاته في البار .

ـ هل قال لك إنّ من الممكن أن يصبح ... تعلمين ما أقصد ... أن يصبح غريب الأطوار وأن يخطر له أن يؤذيك ؟

ـ ليس تماماً ، قالت المرأة الشّابّة . ففي هذه الحالة ينبغي أن يعرف عنه أشياء أخرى . طفولته مثلاً ... كما أظن ... أعني كل هذه الترهات . قلت لك يا أمي كان الصخب عالياً وكنّا بالكاد نستطيع أن نتحدّث معاً .

ـ حسناً . كيف حال معطفك الأزرق ؟

ـ نزعت منه الكتفيتين .

ـ وكيف هي الفساتين هذه السّنة ؟

ـ رائعة . ولكن لنساء كوكب المرّيخ . إذ لا نكاد نرى سوى الأثواب ذات القماش المذهّب وما شابه من البدع ، قالت المرأة الشّابّة .

ـ وغرفتك ، كيف هي ؟

ـ جيدة . أعني لا بأس بها . لم نستطع أن نحصل على الغرفة التي اعتدنا أن نقيم فيها قبل الحرب . والناس فظيعون هذه السنة . أود لو ترين أولئك الذين يجلسون الى طاولات متجاورة في المطعم . إذ يحسب واحدنا أنّهم أتوا الى هذا المكان في مقصورات للبهائم .

ـ هذا ما ترينه في كل مكان . وثوب السهرة .

ـ إنّه طويل جداً . أرأيتِ ، قلت لك إنّه طويل جداً .

ـ موربيل أقول لك مرّة أخرى ، ولكنّها ستكون المرّة الأخيرة ، أكل شيء على ما يرام حقاً ؟

ـ أجل ، أجل يا أمي ، قالت المرأة الشّابّة ، أقول لـك أجل للمـرّة الألف .

ـ ولا تريدين أن تعودي الى البيت ؟

ـ كلا يا أمي .

ـ قال لي والدك أمس إنّه مستعد لدفع تكاليف السفر لأي مكان تختارينه لقضاء العطلة منفردة ، فيتّسع لك الوقت للتفكير ملياً . وفي وسعك قضاء أيام عطلة ممتعة . وفكّرنا والدك وأنا ...

ـ كلا ، أنتما لطيفان ، قالت المرأة الشّابّة ، وأنزلت إحدى ساقيها، أمي ، هذه المخابرة ستكلفني ...

ـ عندما أتذكّر كيف انتظرت هذا الصبيّ طوال سنوات الحرب... أعني عندما يفكّر المرء في كل تلك الزوجات الصغيرات المعتوهات اللواتي ...

ـ من الأفضل ، يا أمي ، أن نقطع المخابرة ، سيمور سيعود بين دقيقة وأخرى .

ـ أين هو الآن ؟

ـ على الشاطئ .

ـ على الشاطئ ؟ وحده ؟ هل يتصرف على نحو لائق على الشاطئ ؟

ـ أمي ، تتكلّمين عنه وكأنّه مجنون خطير .

ـ لم أقل هذا يا موريل .

ـ هذا ما نظنّه حين نسمع كلامك . أتعلمين . كل ما يفعله هناك أنّه يظل ممدّداً على الرّمال حتى يخلع عنه برنس الحمّام .

ـ لا يخلع البرنس ، لماذا ؟

ـ لا أعلم ، ربّما لأنّه يخجل من لونه الأبيض الشّاحب .

ـ يا إلهي ، لكنّه في حاجة للشّمس ، ألا تستطيعين إقناعه بخلعه ؟

ـ أنت تعرفين سيمور جيداً ، قالت المرأة الشّابّة وهي تضع ، من جديد ، ساقاً على ساق . فهو يقول إنّه لا يريد أن يرى ثلّة حمقى تتحلّق حوله لتتفرّج على وشمه .

ـ لكنّه لا يملك وشماً ! هل وشم جسده في الحرب .

ـ لا يا أمي ، لا يا أميمتي ، قالت المرأة الشّابّة وهي تنهض . إسمعي ربّما اتّصل بك غداً .

ـ موربيل إسمعيني الآن .

ـ نعم يا أمي ، قالت موربيل وهي تتكئ بكل ثقلها على ساقها اليمنى .

ـ اتصلي بي مباشرة إذا حدث تصرّف أو قال لك أي شيء غريب ... تعلمين ماذا أعني . هل تسمعين ؟

ـ أمي ، أنا لا أخاف سيمور .

ـ موربيل أريدكِ أن تعديني .

ـ حسناً ، أعدكِ . إلى اللقاء ، قالت المرأة الشّابّة ، وقبلات لأبي. وضعت السماعة .

ـ أرى المزيد من الزجاج ، قالت سيبيل كاربنتر التي تقيم في الفندق مع والدتها . هل رأيت المزيد من الزجاج ؟

ـ كفي عن ترداد هذا الكلام ، يا بنيّة . فهذا سيفقد أمك صوابها . وكفي عن الحراك ، أرجوكِ .

كانت السيدة كاربنتر تدهن كتفيّ سيبيل بالزيت ضدّ الشمس . وكانت تمسحه بعناية على نتوء عظم الكتفين الطريين كجناحين . وسيبيل تجلس بغير ثبات على كرة منفوخة ووجهها نحو المحيط . تلبس مايو أصفر ، مايو من قطعتين إحداهما لن تكون ذات فائدة لعشرة أعوام طويلة أخرى .

ـ بالفعل ، لم يكن ذلك سوى منديل حرير ، نعرفه حين ننظر إليه عن كثب ، قالت المرأة المستلقية على الكرسي الطويل في جوار السيدة كاربنتر . كنت أود أن أعرف كيف عقدته ، كان رائعاً حقاً .

ـ فعلاً ، لا بدّ أن يكون رائعاً ، قالت السيدة كاربنتر . سيبيل ، كفّي عن التململ ، يا صغيرتي .

ـ هل رأيت المزيد من الزجاج ، قالت سيبيل .

تنهّدت السيدة كاربنتر وتلمّظت .

ـ لقد انتهينا . قالت . وغطّت حنجور الزيت . والآن هيّا العبي يا بنيّة . ستذهب الماما وتشرب كأساً من المارتيني في صحبة السيدة هوبل . سوف أحتفظ لك بحبات الزيتون .

وانطلقت سيبيل إلى طرف الشاطئ المسطّح ، تسير نحو جناح صيّاد السّمك . ولم تتوقّف سوى مرّة واحدة ، لكي تغرز قدمها في قصر

من الرمل مهدّم . ولم تلبث أن أصبحت خارج حدود المساحة الخاصة بنزلاء الفندق .

اجتازت بضع مئات أخرى من الأمتار ، ثم استدارت فجأة وتسلّقت راكضة طرف الشاطئ من النّاحية الأخرى حيث الرّمال المبلّلة . وتوقّفت بلا حراك أمام الرّجل المستلقي على ظهره .

ـ ألن تنزل إلى الماء لترى المزيد من الزجاج ؟ قالت .

ارتعد الشاب ورفع يده اليمنى ممسكاً بطرف برنسه . انقلب على بطنه ونزع الفوطة الملفوفة التي يغطي بها عينيه . وألقى على سيبيل نظرة مواربة .

مرحى ، سيبيل !

ـ ألن تنزل إلى الماء ؟

ـ كنت في انتظارك ، قال الشاب . ما الجديد ؟

ـ ماذا ؟ قالت سيبيل .

ـ ما الجديد ؟ ما هي أخبارك ؟

ـ أبي سيصل غداً ، قالت سيبيل ، وهي تركل الرّمل فيتطاير .

ـ ليس في وجهي يا طفلة ! قال الشاب وأمسك بيده أحد عرقوبي سيبيل . حسناً آن لوالدك أن يصل . لقد انتظرته طوال ساعات . ساعات طويلة !

ـ أين السيدة ؟ قالت سيبيل .

ـ السيدة ؟

نفض الشاب براحة يده بعض الرّمل العالق في شعره :

ـ يصعب القول ، يا سيبيل . قد تكون في هذه اللحظة في ألف مكانٍ ومكان . قد تكون عند المزيّن مثلاً ، لصبغ شعرها بلون الفيزون . أو قد تكون في غرفتها تشغل نفسها بالعرائس لأولاد الفقراء .

في تلك اللحظة وفيما هو مستلقٍ على بطنه وضع قبضتيه الواحدة فوق الأخرى وأسند ذقنه عليهما .

ـ حدّثيني عن أشياء أخرى يا سيبيل . إنّك ترتدين مايو جميلاً . فإذا كان هناك ما أحبه كثيراً فلا شك أنّه المايو الأزرق .

رمقته سيبيل بدهشة ثم خفضت عينيها إلى بطنها المكوّر قليلاً .

ـ لكنّه أصفر ، قالت . أصفر !

ـ لا ؟ اقتربي قليلاً .

تقدّمت سيبيل خطوة إلى الأمام .

ـ أنت على حق . كل الحق . يا لغبائي .

ـ ألن تنزل الى الماء ؟ قالت سيبيل .

ـ ما زلت أفكّر في الأمر . أفكّر في هذه المسألة كثيراً يا سيبيل، أكثر مما تتخيّلين .

تفحّصت سيبيل عوّامة المطّاط التي كان يستخدمها كوسادة .

ـ ينبغي لها المزيد من الهواء ، قالت .

ـ أنت محقة . إنّها في حاجة لكمية من الهواء أكثر بكثير مما أرغب في أن أضعه فيها .

أنزل قبضتيه وأسند ذقنه إلى الرّمل .

ـ سيبيل ، أنت متألقة . كم هو ممتع أن أراكِ . حدّثيني عن نفسك ..:

مدَّ يده وأمسك بعرقوبي الفتاة .

ـ أنا من مواليد برج الجدي ، قال . وأنت ؟

ـ شارون ليبشوتز قالت بأنَّك سمحت لها بأن تجلس جانبك على مقعد البيانو ، قالت سيبيل .

ـ أهذا ما قالته شارون ليبشوتز ؟

هزَّت سيبيل رأسها بإصرار .

أفلت عرقوبيها ومدَّد ذراعيه وأسند خدَّه على ذراعه اليمنى وقال:

ـ لا بأس ، أنت تعلمين يا سيبيل كيف تحدث مثل هذه الأمور . كنت جالساً هناك أعزف . ولم أجد أثراً لكِ في الجوار . جاءت شارون ليبشوتز وجلست جانبي . لم يكن في استطاعتي أن أنهرها ، أليس كذلك ؟

ـ بلى تستطيع !

ـ لا ، لا ، لم يكن في استطاعتي أن أفعل ، قال الشاب .

ـ ولكنّني سأقول لكِ ماذا فعلت .

ـ مـاذا ؟

ـ تخيّلت أنّها أنتِ.

أطرقت سيبيل تحفر في الرَّمل .

ـ هيَّا ننزل الى الماء ، قالت .

ـ حسناً ، قال الشاب ، أعتقد أنَّ طاقاتي تسمح لي .

ـ في المرَّة القادمة أبعدها عنك ، قالت سيبيل .

ـ ابعد مَنْ ؟

ـ شارون ليبشوتز .

ـ أوه ، شـارون ليبشوتز ، قـال الشـاب . كـم يسـتعاد هـذا الإسـم مازجاً الذكريات بالرغبة !

ثم انتصب فجأة على ساقيه . ونظر إلى المحيط . وقال :

ـ سيبيل ، سأقول لـك مـاذا سنفعل . سوف نـرى هـل نسـتطيع الإمساك بسمكة الموز .

ـ مـاذا ؟

ـ سمكة المـوز . قـال ، وحـلّ زنّـار برنسـه وخلعـه . كـان كتفـاه أبيضين ضيّقين ، وعروقه الزرقاء بارزة تحت الجلـد . طـوى برنسـه مـرّة بالطول وثلاثاً في الاتجاه الآخر . ثم فرد الفوطة التي كان يغطي بها عينيـه على الرمال ووضعه عليها . ثم انحنى والتقط عوّامة المطاط وحملها تحـت ذراعه الأيمن . وأمسك بيده اليمنى يد سيبيل وركضا معاً صوب المحيط .

ـ أحسب أنّكِ لم تري الكثـير مـن سـمك المـوز فـي حيـاتك ؟ قـال الشاب .

هزّت سيبيل رأسها نفياً .

ـ ليس الكثير ، أليس كذلك ؟ بالمناسبة أين تسكنين ؟

ـ لا أعرف ، قالت سيبيل .

ـ من المؤكد أنّك تعرفين . لا بـدّ مـن ذلـك . شـارون ليبشـوتز تعرف أين تسكن وهي لم تتجاوز الثالثة والنصف من عمرها .

توقفت سيبيل فجأة وسحبت يدها من يده . التقطت صدفة وأخذت تتأمّلها باهتمام ، ثم رمتها .

ـ ويرلي وود ، كونكتيكوت ، قالت . وتابعت سيرها وبطنها إلـى الأمام .

ـ ويرلي وود ، كونكتيكوت ، قال الشاب ، ألا يصادف أن يكون هذا المكان في جوار ويرلي وود كونكتيكوت ؟

رمقته سيبيل .

ـ هناك أسكن بالضبط ! قالت بنفاذ صبر . أسكن ويرلي وود كونكتيكوت .

خطت بضع خطوات راكضة أمامه ثم رفعت قدمها اليسرى وأمسكتها بيدها وراحت تقفز ، قفزتين أو ثلاثاً على هذه الحال .

ـ أنت لا تعلمين كم أصبحت الأمور واضحة ، قال الشاب .

أفلتت الفتاة قدمها .

ـ هل قرأت " السامبو الأسود الصغير "؟ قالت .

ـ غريب حقاً أن تسألي مثل هذا السؤال ، لقد أنجزت قراءته أمس مساء .

تلمّس يد سيبيل وأمسكها .

ـ ما رأيك فيه ؟ سألها .

ـ هل تذكر كيف كانت النمور تتقافز حول الشجرة .

ـ خلت أنّها لن تتوقّف أبداً . في حياتي كلها لم أرَ مثل هذا العدد من النمور .

ـ لكنها ستة فقط ، قالت سيبيل .

ـ ستة فقط ! قال الشاب . أو تقولين فقط !

ـ هل تحب الشمع ؟ سألت سيبيل .

ـ أحب ماذا ؟ قال الشاب .

ـ الشمع ؟

ـ أحبه كثيراً ، وأنت ؟

قالت سيبيل نعم برأسها .

ـ هل تحب الزيتون ؟ سألت .

ـ الزيتون ؟ أجل . الزيتون والشمع . لا أذهب إلى مكان دون أن أحمل معي زيتوناً وشمعاً .

ـ أتحب شارون ليبشوتز ؟ سألت سيبيل .

ـ أجل ، اجل أحبها ، قال الشاب . وأكثر ما أحب فيها أنّها لا تؤذي الكلاب الصغيرة في ردهة الفندق . لا تؤذي مثلاً ذلك البولدوغ المنمنم في صحبة السيدة الكندية . قد لا تصدقيني إذا قلت لكِ انّ هناك فتيات صغيرات يستمتعن بنحر الكلب الصغير بأعواد مصّاصات السكّر الطويلة . ولكن شارون لا تفعل ذلك ابداً . ليست شرّيرة أو بائسة . ولهذا السبب أحبها كثيراً .

كانت سيبيل تصغي صامتة . ثم قالت :

ـ أحب أن أمضغ الشمع .

ـ ومَنْ لا يحب ذلك ، قال الشاب وهو يغطس بقدميه في الماء . بررررر .....! يا للصقيع .

أفلت عوّامة المطاط فوقعت .

ـ لا يا سيبيل ، إنتظري لحظة . إنتظري حتى نبتعد قليلاً .

تقدّمها في الماء وبلغا مكاناً يغمر سيبيل حتى خصرها . حملها الشاب بين ذراعيه ومدّدها على بطنها على العوّامة .

ألا تضعين على رأسك قبّعة أو أي شيء ؟

ـ لا تدعني أفلت منك ، قالت سيبيل بلهجة آمرة ، إمسكني جيداً .

ـ آنسة كاربنتر ، أرجوكِ ، أنا أعرف مهنتي جيداً ، قال الشاب . كل ما يجب أن تفعليه هو أن تفتحي عينيك ما استطعت لرؤية سمك الموز. إنّه اليوم المرتجى لسمك الموز .

ـ لا أراه ، قالت سيبيل .

ـ مفهوم . فهذه الأسماك لها عادات غريبة ، بل غريبة جداً .

كان لا يزال يدفع العوّامة وهوممسك بها . وبات الماء يغمره حتى صدره .

ـ إنّ مصيرها مأساوي ، قال الشاب ، أتعلمين يا سيبيل ماذا تفعل هذه الأسماك ؟

قالت لا برأسها .

ـ إنّها تدخل في حفرة حيث موز كثير . وعندما تدخل تكون أسماكاً كغيرها . وفي الداخل تروح تتصرّف وكأنّها خنازير . أتعلمين ، لقد رأيت مرّة سمكة الموز تدخل في حفرة موز وتأكل منه ما لا يقلّ عن ثمانٍ وسبعين موزة .

ثم دفع العوّامة ونزيلتها إلى ابعد قليلاً صوب عرض المحيط .

ـ وبالطبع بعد ذلك تصبح الأسماك سمينة فلاتعود تستطيع أن تخرج من الحفرة . لا تعود تستطيع أن تمرّ عبر فتحتها .

ـ لا تدفعني أبعد ، قالت سيبيل . وماذا يصيبها ؟

ـ ما الذي يصيب ماذا ؟

ـ سمك الموز .

ـ آه ، تقصدين حين تأكل الكمية من الموز ولا تعود تستطيع الخروج من الحفرة ؟

ـ أجل ، قالت سيبيل .

ـ الحقيقة يؤلمني أن أقول لكِ يا سيبيل إنّها تموت .

ـ لماذا ؟ سألت سيبيل .

ـ من حمّى الموز . أنّه مرض فظيع .

ـ انتبه ، هناك موجة ، قالت سيبيل بعصبيّة .

ـ لن نراها ، سوف نخدعها ، قال الشاب . نحن مخادعان .

أمسك بعرقوبي سيبيل وبدفعة واحدة جعل العوّامة تتقدم إلى الأمام، ارتفعت العوّامة على سطح الموجة . وبلّل الماء شعر سيبيل الأشقر، ولكن صرختها كانت مليئة بالغبطة .

عندما اجتازت الموجة واستعادت العوّامة ثباتها رفعت خصلة شعر مبلّلة عن عينيها وقالت :

ـ لقد رأيت واحدة .

ـ واحدة ماذا ؟ يا عزيزتي ؟

ـ سمكة موز .

ـ يا إلهي ، مستحيل ! قال الشاب . وهل رأيت موزاً في فمها ؟

ـ أجل ، قالت سيبيل ، ست موزات !

أمسك الشاب فجأة بإحدى القدمين الصغيرتين المبلّلتين وقبّلهما .

ـ هيه ، قالت صاحبة القدم وهي تلتفت .

ـ هيه ، أنت عينك ! يجب أن نعود أدراجنا الآن . هل اكتفيتِ ؟

ـ كـلا !

ـ آسف ! قال ، ودفع العوّامة نحو الشاطئ واستطاعت سيبيل أن تنزل عنها . وحمل العوّامة وهما يغادران الماء .

ـ إلى اللقاء ، قالت سيبيل ثم انطلقت راكضة ، غير آسفة ، في اتجاه الفندق .

لبس الشاب برنسه وعقد زنّاره . ثم حشر الفوطة في أحد جيوبه. التقط العوّامة الرطبة والمربكة ووضعها تحت ذراعه . ثم مشى وحيداً نحو الفندق على الرّمال الرّخوة والحارقة .

عند المدخل الذي خصّصته إدارة الفندق بالمستحمين ، كانت امرأة تضع مرهماً ما على أنفها ، ركبت المصعد إلى جانب الشاب .

وعندما بدأت حجرة المصعد ترتفع قال الشاب :

ـ أراك تنظرين إلى قدميّ .

ـ عفواً ؟ قالت المرأة .

ـ قلت : أراكِ تنظرين إلى قدميّ .

ـ استميحك عذراً ، كنت أنظر إلى الأرض ، قالت المرأة وأشاحت بوجهها نحو باب المصعد .

ـ إذا كنت تريدين أن تنظري إلى قدميّ أخبريني بصراحة ، أضاف الشاب ، ولكن كفّي عن التلصص .

ـ أوقفي المصعد هنا ، أرجوكِ ، أريد أن أنزل ، قالت المرأة مخاطبة فتاة المصعد .

فتح الباب وخرجت المرأة دون أن تلتفت إلى الوراء .

ـ لديّ قدمان عاديتان فما الدّاعي لأن ينظر الناس إليهما ، قال الشاب ، الطابق الخامس من فضلك .

تناول مفتاح غرفته من جيب البرنس . وخرج عند الطّابق الخامس . مشى في الرواق قليلاً ثم دخل الى الغرفة ٥٠٧ كانت تملأ الغرفة رائحة جلد العجول الذي صنعت منه الحقائب ورائحة مزيل طلاء الأظافر .

التفت نحو المرأة التي تنام على أحد السريرين . ثمّ نحو إحدى الحقائب ، فتحها وأخذ منها عدداً من السّراويل الداخلية وسراويل الاستحمام، ومسدساً أوتوماتيكياً من طراز أورتجيز عيار ٧،٦٥ سحب ممشطه تفحصه ثم اعاده . جهّز المسدس . واقترب وجلس على طرف السرير الشاغر ، نظر الى المرأة الشّابّة ، صوّب المسدس وأطلق رصاصة على صدغه الأيمن .

مُباشرةً قبـل الحـرب مـع الأسـكيمـو

كانت تلك خامس صبيحة يوم سبت على التوالي تقضيها جيني مانوكس في ممارسة لعبة كرة المضرب في إيست سايد مع سيلينا غراف ، إحدى رفيقات صفّ الآنسة بايزهار . وما كانت جيني لتغفل عن اعتبار سيلينا إحدى أكثر الفتيات شُحّاً في صف الآنسة بايزهار ــ وهو الصف الذي يجمع عدداً من التلاميذ الأكثر شُحّاً ــ ولكن ، من ناحية أخرى، لم تكن تعرف ، في حدود عملها ، أحداً غير سيلينا ، يستطيع أن يجلب معه هذا العدد من كرات التنس الجديدة . فقد كان والد سيلينا يعمل في صناعة مثل هذه الكرات أو شيء من هذا القبيل (وذات مساء حاولت جيني ، أثناء تناول طعام العشاء ، أن تصف لعائلتها كيف يمكن أن يقيم آل غراف مأدبة عشاء كبيرة : ومن جملة ما قالته إنّ هناك خادماً باللباس الرسمي يقترب من كل ضيف ، من يساره ، ويقدّم له بدل كوب عصير الطماطم علبة من كرات التنس) . ولكنّ هذا لم يحل دون أن تشعر جيني ببعض الغيظ ، لأنّها بعد انتهاء اللعبة عليها أن تصحب سيلينا في سيارة الأجرة فتوصلها الى منزلها ، ويكون عليها أن تدفع الأجرة بمفردها . ومهما يكُنْ ، فقد كانت فكرة العودة من ملعب التنس بسيارة الأجرة لا بالباص هي فكرة سيلينا . وخامس يوم سبت ، وفيما كانت السيارة تسير في يورك أفينيو ، لم تتمالك جيني نفسها فقالت :

ــ قولي يا سيلينا ...

ــ مــاذا ؟

كانت سيلينا منهمكة بتلمّس مفرش أرضيّة السيارة بيدها .

ــ لا أجد غطاء المضرب خاصتي ! قالت بتأفف .

وبرغم الحرارة المرتفعة في ذلك النهار ، كانت الفتاتان ترتديان معطفاً فوق سرواليهما القصيرين .

ـ لقد وضعته في جيبك ، قالت جيني . ولكن قولي ، إسمعيني قليلاً .

ـ أوه ، يا إلهي ! لقد أنقذت حياتي !

ـ إسمعي ، قالت جيني التي كانت تسخر من عبارات الامتنان التي لفظتها سيلينا .

ـ ماذا ؟

صمّمت جيني على مكاشفتها صراحةً بالموضوع . وكانت سيارة الأجرة تقترب من الشارع الذي يقع فيه منزل سيلينا .

ـ اليوم ، قالت ، ليس في نيّتي أن أدفع الأجرة بمفردي . أنا لست مليارديرة كما تعلمين .

بدت علائم الدهشة على وجه سيلينا في البداية ، ثم علائم الانزعاج .

ـ ألا أدفع نصف المبلغ دائماً ؟ سألت ببراءة .

ـ لا ، قالت جيني بنبرة جازمة . لقد دفعت النّصف أول سبت . في بداية الشهر الماضي . ومنذ ذلك الحين لم تفعلي ولو مرّة واحدة . لا أريد أن ابدو بخيلة ، ولكنّني أقول الصدق ، إذ ينبغي أن أتدبّر أمري بأربعة دولارات ونصف طوال الأسبوع ، ناهيكِ عن ...

ـ ولكنْ ألستُ أنا مَنْ يحضر كرات التنس في كل مرّة ؟ سألت سيلينا بجفاء .

تمر لحظات بينهما تشعر جيني خلالها برغبة في خنقها .

ـ والدك يعمل في صناعتها أو شيء من هذا القبيل . وهي لا تكلّفك نكلة واحدة ! أما أنا فعليّ أن أبذّر نقودي القليلة لأقلّ ...

ـ حسناً ، حسناً ، قالت سيلينا حريصة على أن تكون نبرتها على قدر من التعالي والحزم لكي تحتفظ لنفسها بالكلمة الأخيرة .

وبشيء من الغيظ فتّشت في جيوب معطفها .

ـ لا أحمل سوى خمسة وثلاثين سنتاً ، قالت بجفاء ، هل تكفي ؟

ـ لا ، آسفة . أنت مدينة لي بدولار وخمسة وستين سنتاً . لقد دوّنت كل ...

ـ في هذه الحالة سيكون عليّ أن أصعد وأطلبها من أمي . ألا تستطيعين التريّث حتى يوم الإثنين ؟ سوف أحضرها لك وأعطيك إياها في الملعب . إذا كان هذا يرضيك .

لم يكن في تصرّف سيلينا ما يشجّع على التراضي .

ـ لا ، قالت جيني . سأذهب الى السينما هذا المساء . وأحتاج نقودي .

مكثت الفتاتان حتى لحظة توقّف السيارة أمام منزل سيلينا متمسكتين بصمتٍ عدواني فيما أنظارهما مثبتة على زجاج النافذتين المتقابلتين . ترجّلت سيلينا أولاً لأنّها كانت جالسة لجهة الرصيف . وتركت الباب شبه مغلق ، ثم دخلت الى المبنى بخطى متسارعة وبسحنة لا مبالية وكأنّها إحدى أميرات هوليوود . دفعت جيني الأجرة وكان وجهها مشتعلاً لشدة احمراره . ثم لملمت حاجياتها ـــ المضرب والفوطة المنشفة والكاسكيت الواقية من الشمس ـ ولحقت بسيلينا . كانت جيني في الخامسة عشرة يبلغ طولها متراً وخمسة وسبعين وتلبس حذاء تنس مقاس ٤٠ ،

وكانت في مشيتها البليدة في نعلين من المطاط تبدو وهي تدخل الى فناء المبنى أشبه بدبٍ صغير . ارتأت سيلينا أنّه من الأفضل أن تبقي عينيها مثبتتين على لوحة العدّاد فوق حجرة المصعد .

ـ أصبحت مدينة لي بدولار وتسعين سنتاً ، قالت جيني وهي تقترب منها بخطوات واسعة .

استدارت سيلينا .

ـ قد يهمك ربما أن تعلمي بأنّ أمي مريضة ، قالت .

ـ ممّ تشكو ؟

ـ بداية التهاب في الرئتين وإذا كنت تعتقدين بأنّني أستمتع بإقلاق راحتها لأسباب تافهة كحكاية النقود هذه ...

حاولت سيلينا أن تضمّن عبارتها التي لم تكتمل بكل ما تستطيعه من نبرات العنف اللاذع . وبالفعل فإنّ هذا الخبر ، سواء كان صحيحاً أو مختلقاً ، أربك جيني قليلاً ولكنّه لم يُليّن موقفها .

ـ ليست هي مَنْ استدان مني المال ، قالت . ولحقت بها الى داخل المصعد .

حين قرعت سيلينا الجرس ، دخلت الفتاتان الى الشقة ـ أو الأصح أنّ الباب فُتِحَ وتُرِكَ مشرعاً من قبل خادمة سوداء . بدا أنّ سيلينا لم تعد توجه إليها أي كلام . وضعت جيني حاجياتها على كرسي عند المدخل ولحقت بسيلينا . وعند دخولها الصالة استدارت هذه الأخيرة وقالت :

ـ هلاّ انتظرت هنا ؟ فقد يكون عليّ أن أوقظ أمي وكل شيء .

ـ لا بأس ، قالت جيني وألقت بنفسها على كنبة .

ـ لم أكن أحسب أنّ بإمكانك أن تكوني على هذا القدر من الخسّة، قالت سيلينا وقد بلغ بها الغضب حد استخدام كلمة " خسّة " ولكن دون أن تكون لديها الشجاعة لأن تلفظها بصوت مرتفع .

ـ الآن ، أصبحت تعلمين ، قالت جيني .

وفتحت عدداً من مجلة " فوغ " أمام عينيها . أبقت وجهها مخفياً خلف المجلة حتى غادرت سيلينا الحجرة ، فأنزلت المجلة ووضعتها فوق جهاز الراديو .

تمعّنت بالحجرة وأعادت تأثيثها بمخيلتها ، إذ كانت تلغي عدداً من المصابيح من أمكنتها ، وتبدّل في مواضع الزهور الاصطناعية . إذ كانت ترى أنّها صالة بشعة تتكدّس فيها القذارات التي لا قيمة لها .

ترامى إليها فجأة صوت رجل من أقصى الجهة المقابلة للشقة .

ـ أهذا أنت يا أريك ؟

خمّنت جيني أنّه شقيق سيلينا الذي لم تلمحه من قبل . فشبكت ساقيها الفارهتين وأنزلت أطراف معطفها على ركبتيها وانتظرت .

دخل الى الحجرة شاب يرتدي نظّارة ، ومنامة حافي القدمين فاغر الفم .

ـ أوه ! يا إلهي لقد حسبت أنّه أريك ! قال .

ودون أن يتوقف اجتاز الصالة بزيّه هذا وهو يحتضن شيئاً ما على صدره الضيّق . ثم جاء وجلس على طرف الكنبة المقابل .

ـ لقد جرحتُ إصبعي ، قال بنبرة غاضبة .

ونظر الى جيني وكأنّه كان يتوقّع وجودها في مكانها .

ـ ألم يسبق لك أن جرحت إصبعك ؟ سألها . أعني جرحاً بليغاً حتى العظم ؟

كان في صوته المتباكي نبرة استغاثة وكأنّ جيني ، في ردّها عليه، تقدر أن توفّر عليه جهد إزالة الحرج بينهما . وكانت جيني ترمقه بعينين جاحظتين .

ـ في الحقيقة ليس حتى العظم تماماً ، قالت . ولكنّني سبق أن جرحتُ نفسي .

لقد كان الفتى أو الرجل ـ إذ يصعب القول ـ غريب الأطوار ولم تلتق بمثله من قبل . ولمجرد أن رأت شعره أدركت أنّه غادر السرير لتوّه، ويبدو بوضوح من لحيته النابتة أنّه لم يحلق منذ يومين ، وكان مظهره ... باختصار لا يدل على أي مكر .

ـ كيف جرحت نفسك ؟ سألته .

ـ ماذا ؟

ـ كيف جرحت نفسك ؟

ـ بحق الشيطان وهل أعلم ؟ قال بنبرة تفيد بأنّ الجواب عن هذا السؤال سيظل غامضاً إلى الأبد . كنت أبحث عن شيء ما في سلّة المهملات تلك . وكانت مليئة بشفرات الحلاقة .

ـ هل أنت شقيق سيلينا ؟ سألت جيني .

ـ إيه ، يا إلهي أنا أنزف حتى الموت ! أمكثي هنا . في حال احتجت لعملية نقل دم لعينة .

ـ هل وضعت شيئاً على الجرح ؟

أزاح شقيق سيلينا إصبعه بتؤدة عن صدره وأراه لجيني لكي ترى بنفسها .

ـ لا شيء سوى قطعة الورق الصحي اللعين . إنّه يوقف النزيف. كما نفعل عادة حين نجرح أنفسنا أثناء الحلاقة .

نظر إلى جيني من جديد .

ـ من أنت ؟ سألها . إحدى صديقات المختلّة ؟

ـ نحن في الصفّ ذاته .

ـ آه ، بجدّ ؟ وما هو اسمك ؟

ـ فرجينيا مانوكس .

ـ أهذا أنت ، جيني ؟ قال وهو يرمقها من وراء نظّارته .

ـ أجل ، قالت جيني .

أنزلت ساقها عن الأخرى . وعاد شقيق سيلينا ينظر إلى إصبعه الذي كان موضوع اهتمامه الوحيد من بين كل الموجودات في الحجرة .

ـ أعرف شقيقتك ، قال بلامبالاة ، إنّها نمّامة لعينة .

استقامت جيني في جلستها .

ـ مَنْ تقصد ؟

ـ لقد سمعتني .

ـ إنّها ليست نمّامة .

ـ ليأخذني الشيطان لو لم تكن نمّامة . قال شقيق سيلينا .

ـ لا ، ليست كذلك .

ـ ليأخذني الشيطان لو لم تكن كذلك . إنّها الملكة . " ملكة أخوية النميمة ".

رأته جيني يرفع طرف الورقة الصحيَّة عن إصبعه ويلقي نظرة عاجلة تحتها .

ـ أنت حتى لم ترَ أختي من قبل .

ـ بحق الشيطان ، بلى رأيتها .

ـ ما اسمها ؟ ما هو إسمها الأول ؟ سألت جيني .

ـ جوان ... جوان النمّامة .

مكثت جيني صامتة لهنيهة .

ـ كيف هي ؟ سألته فجأة .

لا جــواب .

ـ كيف هي ؟ ألحّت بسؤالها .

ـ لو أنّها تمتلك نصف الجمال الذي تحسَبُ أنّها تمتلكه لكانت محظوظة جداً .

لاحظت جيني بعض المكر في جوابه ولكنّها لم تعلّق عليه .

ـ لم أسمعها تتحدث عنك قط ، قالت .

ـ كم يفطر قلبي ، كم يفطر قلبي لهذا الأمر ، أنتِ تصدقين فعلاً كم يفطر قلبي .

ـ بأية حال ، إنّها محظوظة ، قالت جيني وهي تراقبه بانتباه . وستتزوج خلال الشهر المقبل .

ـ ستتزوج مَنْ ؟ سألها وهو يرفع عينيه نحوها .

استغلّت جيني الفرصة التي أتاحها لها حين نظر إليها .

ـ إسمه لن يعني لك شيئاً .

راح يربّت بأصابعه على ضمّادته المرتجلة .

ـ إني أرثي لحاله .

استغرقت جيني في ضحكةٍ صاخبة .

ـ لا يزال ينزف دماً . ألا تعتقدين بأنّه ينبغي أن أضع شيئاً عليه؟ ماذا أضع عليه ؟ بعض المركوروكروم .

ـ من الأفضل أن تضع عليه صبغة اليود ، قالت جيني .

ثم حين أحسّت بأنّ ردها كان مهذّباً جداً نظراً للظروف ، أضافت:

ـ لا علاقة للمركوروكروم بهذا .

ـ ولِمَ لا ؟ ماذا لديك ضد استخدامه للجرح ؟

ـ لا نفع منه في حالتك ، هذا كل شيء . ما يلزمك هو صبغة اليود .

نظر إلى جيني .

ـ إنّها تسبّب وخزاً ، أليس كذلك ؟ أليست الصبغة التي تسبّب وخزاً كأنّها وخز الجحيم ؟

ـ سوف تحس بوخز ، قالت جيني ، ولكن هذا لن يقتلك .

ودون أن يبدو عليه أنّه استاء من لهجة جيني عاد شقيق سيلينا ليحدّق في إصبعه .

ـ لا أحب هذا ، قال .

ـ لا أحد يحب هذا .

فهزّ برأسه موافقاً .

ـ اجل أعلم ، قال .

رمقته جيني للحظات بصمت .

ـ كف عن التربيت عليه ، قالت فجأة .

وكما لوصعقه تيّار كهربائي سحب شقيق سيلينا يده الأخرى عن الجرح . واستقام قليلاً في جلسته ، أو ، بصورة أدق ، فعل كل ما بوسعه لكي لا يتهالك كلياً أمامها . وراح يحدّق باستغراق في الجهة المقابلة من الحجرة . ولم تلبث أن اكتست قسمات وجهه غير المتناسقة بمسحة شرود، دسّ ظفر سبّابته السليمة بين سنّين أماميتين ونزع منها بقيّة طعام وهو يلتفت نحو جيني .

ـ هل أكلتِ ؟ سألها .

ـ مـاذا ؟

ـ هل تغديتِ ؟

هزّت جيني رأسها نافيةً .

ـ سآكل حين أعود إلى المنزل ، قالت .

فوالدتي تحرص على أن يكون طعام الغداء جاهزاً حين أعود .

ـ لديّ نصف سندويش بالدجاج في غرفتي.أترغبين في بعضٍ منه؟ لم أمسّه حتى الآن ولا شيء .

ـ لا ، شكراً . بجد .

ـ كنت تلعبين كرة المضرب ، فبحق السماء لا بدّ أن تكوني جائعة !

ـ ليس هذا المهم ، قالت جيني . المسألة أنّ أمي تحتفظ بطعام الغداء جاهزاً لحين عودتي . وهي تشعر بالضيق حين لا أكون جائعة ، أتفهمني ؟

بدا شقيق سيلينا متفهّماً ما تقول . أو على الأقل هزّ برأسه ونظر إلى ناحية أخرى . لكنّه سرعان ما التفت إليها من جديد :

ـ ما رأيك بكوب من الحليب ؟ قال .

ـ لا ، شكراً ... صدقني ، شكراً لك .

وبحركة عفوية انحنى وحكّ عقبه العاري .

ـ ما اسم الشاب الذي ستتزوجه ؟ سأل .

ـ تقصد جوان ؟ قالت جيني . إسمه ديك هفنر .

واصل شقيق سيلينا حكّ عقبه .

ـ إنّه ملازم في مشاة البحريّة ، قالت جيني .

ـ إذن ، عفواً ؟

ضحكت جيني ضحكةً بلهاء . ومكثت تراقبه وهو يفعل حتى احمرّ عقبه . وحين بدأ يحكّ بطرف ظفره عند معصمه أشاحت بوجهها .

ـ كيف عرفت جوان ؟ سألته . فأنا لم يسبق لي أن رأيتك في منزلنا ولا شيء .

ـ لم أطأ عتبة منزلكم من قبل .

وانتظرت جيني ولكنّه لم يذيّل تصريحه هذا بشيء آخر .

ـ أين تعرّفت عليها إذن ؟ سألته .

ـ حفلة راقصة .

ـ في حفلةٍ راقصة ؟ متى ؟

ـ لم أعد أذكر . ميلاد ٤٢.

ودسّ إصبعين في الجيب الأعلى لمنامته وتناول منها سيكارة، وبدا من حالة السيكارة أنّها بالتأكيد كانت في جيبه حين كان نائماً .

ـ هلاّ ناولتني علبة الكبريت ؟ قال .

تناولت جيني علبة كبريت كانت على الطاولة بجانبها وقدّمتها لـه. ودون أن يلتفت أشعل سيكارته ثم وضع عود الثقاب المحترق في العلبـة . وأسند رأسـه إلى الخلف ونفث من فمـه نفساً عابقاً لـم يلبث أنِ التقطـه بمنخريه . وواصل التدخين بهذه الطريقة ،" على الطريقـة الفرنسـية ".ولـم يكن سلوكه هذا مجرّد دور يلعبه ، دور مشهد الكنبة في مسرحيّة هزليّـة ، بل يُظهر للعلن التجربة الشخصية الحميمة لفتى كان باستطاعته ، فـي هـذا الوقت أو ذاك ، أن يحاول حلاقة ذقنه بيده اليمنى .

ـ لماذا جوان نمّامة ؟ سألته جيني .

ـ لماذا ؟ لأنّها كذلك . وليأخذني الشيطان لو أنّي أعلم لماذا .

ـ لا ، أقصد : لماذا تقول إنّها نمّامة ؟

التفت نحوها بسحنة من طفح به الكيل .

ـ إسمعي . لقد كتبت لهـا ثمـاني رسـائل لعينـة . ثمـانٍ! ولـم تـردّ على أي منها .

تردّدت جيني قليلاً .

ـ إذن لا بدّ أنّها كانت مُنشغلة .

ـ بلى ، بلى هذا ما في الأمر . مُنشغلة . مُنشغلة مثل مرموط .

ـ لماذا تجدّف هكذا ؟ سألت جيني .

ـ سحقاً ، هذا صحيح فأنا أتكلّم ببذاءة .

ضحكت جيني ضحكة عاجلة .

ـ بأية حال ، منذ متى تعرفها ؟

ـ منذ وقتٍ غير قصير ، على كل حال .

ـ أجل ولكن أقصد ، هل سبق لك أن اتصلت بها هاتفياً أو أي شيء من هذا القبيل ؟ أعني ، أنت تفهمني جيداً ، هل اتصلت بها أو ...

ـ لا .

ـ إذن ، بحق السماء ، ما دمت لم تتصل بها هاتفياً ، ما هو مأخذك عليها ؟

ـ ولكنْ ، لم يكن باستطاعتي أن أفعل !

ـ لماذا ؟ قالت جيني ؟

ـ كنت خارج نيويورك .

ـ آه ! وأين كنت ؟

ـ أنا ؟ كنت في الأوهايو .

ـ آه ! كنت في المدرسة الثانوية ؟

ـ غير مهم ! تركتُ المدرسة منذ مدّة .

ـ آه ! كنت في الجيش ؟

ـ غير مهم .

ربّت باليد التي تمسك السيكارة على الجهة اليسرى من صدره .

ـ الخافق ، قال .

ـ قلبك ؟ قالت جيني . ما به قلبك ؟

ـ لست أدري شيئاً لعيناً مما به . لقد أصبت في صغري بحمّى روماتزميّة . ألَم فظيع في ...

ـ ولكن ، أخبرني ، ألم يُحظّر عليك التدخين وكل هذا ؟ أقصد ، ألا ينبغي أن تتوقف عن التدخين وما إليه ؟ لقد سمعت الطبيب يخبرنا ...

ـ تبّاً ! إنّهم لا يتوقفون عن رواية ترهاتهم ، قال .

صمتت جيني لهنيهة .

ـ ماذا كنت تفعل في الأوهايو ؟ سألته .

ـ مَنْ ، أنا ؟ كنت أعمل في قذارة يسمونها مصنع طيران .

ـ انت ؟ قالت جيني . وهل كنت مرتاحاً في عملك ؟

ـ هل كنت مرتاحاً ؟ ردّد قولها وهو يقلّد نبرتها بسخرية . كنت أعشق عملي . فلطالما كنت شغوفاً بالطائرات . إنّها جميلة !

كانت جيني مأخوذة بسياق الحوار لدرجة أنّها لم تشعر بانزعاج .

ـ كم استغرق عملك هناك ؟ في مصنع الطيران ؟

ـ لست أدري . بحق السماء . سبعةً وثلاثون شهراً .

نهض من مكانه واتجه نحو النافذة . وراح يتأمّل الشارع وهو يحكّ عموده الفقري بإبهامه .

ـ أنظروا إليهم ، قال . زمرة الحمقى !

ـ مَنْ ؟ قالت جيني .

ـ لست أدري ، كل الناس .

ـ إذا أبقيت إصبعك إلى الأسفل هكذا فسوف ينزف من جديد .

أطاعها . أسند قدمه اليسرى على حافة النافذة ووضع يده المجروحة على فخذه في وضع أفقي . وواصل تأمله في الشارع .

ـ إنّهم ، جميعهم ، يقفون في الطابور أمام مجلس المراجعة اللعين هذا ، جميعهم ، قال . في المرّة القادمة سنقاتل الأسكيمو . هل كنت تعلمين ذلك ؟

ـ أل ماذا ؟ قالت جيني

ـ الأسكيمو ! إفتحي أذنيكِ بحق السماء !

ـ ولماذا الأسكيمو ؟

ـ لست أدري لماذا ! ومن أين لي أن أعرف بحق السماء ؟ وهذه المرّة سيجنّدون العجائز . الرجال الذين يقاربون الستين . ولن يُجنّد أحد لم يبلغ الستين أو ما يقاربها . قال . كل المسألة أنّهم يوفّرون عليهم عدد الساعات ، هذا كل ما في الأمر ... إنّها فكرة عبقرية !

ـ على أية حال لن تكون ، أنت ، مجبراً على الاشتراك فيها ، قالت جيني بحسن طويّة ، ولكنّها لم تلبث ، حتى قبل أن تنهي عبارتها ، أن أدركت بأنّها ترتكب غلطة .

ـ أعلم ، قال بنبرة عالية .

أنزل قدمه عن حافة النافذة التي فتحها ورمى بنقفةٍ سيكارته إلى الشارع . استدار وأعطى ظهره للنافذة .

ـ قولي ، هل تودين لي خدمة . حين يصل الشاب هلاّ تقولين له بأنّني سأكون جاهزاً خلال دقيقتين ؟ ليس عليّ سوى أن أحلق ، هذا كل شيء ، أوكي ؟

أشارت جيني برأسها إيجاباً .

ـ أتودين أن أطلب من سيلينا أن تسرع أو أي شيء ؟ هل تعلم أنّك هنا ؟

ـ أوه ، إنّها تعلم ، قالت جيني . ولديّ متّسع من الوقت ، شكراً لك .

هزّ شقيق سيلينا برأسه وأطال النظر ، مرّة أخيرة إلى إصبعه كما لو أنّه يود التحقق من أنّ حالته تسمح له باجتياز المسافة التي تفصله عن غرفته .

ـ لماذا لا تضع عليه ضماداً لاصقاً ؟ أليس لديك ضمّـادات أو أي شيء من هذا القبيل ؟

ـ لا ، قال . تبّاً ، لا تقلقي للأمر .

وخرج من الحجرة مجرجراً خطاه .

ولم تمضِ ثوانٍ حتى عاد أدراجه حاملاً نصف السندويش .

ـ كلي هذا ، قال . إنّه لذيذ .

ـ حقاً ، أنا لستُ ...

ـ خذي هذا ، بحق السماء . لم أضع فيه سُماً أو أي شيء .

تناولت جيني نصف السندويش .

ـ حسناً ، شكراً جزيلاً ، قالت .

ـ إنّه بالدجاج ، قال وقد مكث فـي مكانـه وهـو ينظـر إليهـا . لقـد اشتريته مساء أمس من دكان جزارة لعين .

ـ يبدو أنّه لذيذ .

ـ إذن كليه .

فقضمت جيني لقمة منه .

ـ إنّه لذيذ ، أليس كذلك ؟

ابتلعت جيني اللقمة بصعوبة .

ـ لذيذ جداً ، قالت .

هزّ شقيق سيلينا برأسه وأجال نظراته الساهية في أرجـاء الحجـرة وهو يحك صدره .

ـ لا بأس إذن ، أعتقد أنّه من الأفضل أن أذهب لارتداء ثيابي ... سحقاً، هناك من يقرع جرس الباب!لا تتحركي من مكانك ، سأفتح بنفسي.

وحين قال هذا كان قد غادر الحجرة .

حين وجدت أنّها وحدها في الحجرة فتّشت من حولها دون أن تنهض عن مكان تخبئ فيه السندويش . وسمعت خطوات تجتاز الرواق . فدسّت السندويش في جيب معطفها .

رجل ثلاثيني ، لا قصير القامة ولا طويلها ، دخل إلى الحجرة . ولم تكن ملامحه المتناسقة وشعره القصير أو تفصيل ثوبه وطراز ربطة عنقه لتشير إلى حقيقة ما يكون . أحد أفراد أسرة تحرير مجلة مرموقة ، أو قد يكون ممثلاً في فرقة مسرح تقدّم عرضاً في فيلادلفيا ، أو قد يكون يعمل في مكتب محام .

ـ مرحباً ! قال لها بود .

ـ مرحباً !

ـ هل رأيت فرانكلين ؟ سألها .

ـ إنّه يحلق ذقنه . طلب مني أن أقول لك بأن تنتظره . لن يستغرقه ذلك أكثر من دقيقة .

ـ أوه ، يا إلهي ! إنّه يحلق !

نظر إلى ساعته . ثم جلس على كنبة من الدمقس الأحمر وشبك ساقيه وغمر وجهه بكفّيه . ثم فرك جفنيه بطرف أصابعه طويلاً ، كأنّه أحسّ بتعب شديد وكأنّ عينيه تؤلمانه لشدّة التعب .

ـ لقد كان هذا الصباح أسوأ ما مرّ عليّ في حياتي ، قال وهو يرفع يديه عن وجهه .

كان صوته يصدر عن حنجرته كأنّ التعب يحول دون استخدامه لرئتيه .

ـ ماذا جرى لك ؟ سألت جيني وهي تنظر إليه .

ـ آه ... إنّها قصّة طويلة . وليس مـن عـادتي أن أزعج أناساً لا أعرفهم منذ عشرة قرون على الأقل .

كان يجيل نظراته الغائبة والعبوسة على النوافذ .

ـ على أية حال لن أدع الطبيعة الإنسانية تغلبني مرّة ثانية . حتـى ولو تكلّفاً . وصدقيني حين أقول هذا .

ـ ماذا جرى لك ؟ ردّدت جيني .

ـ آه ، يا إلهي ! ذلك الكائن الذي يشاركني السكن فـي شـقتي منـذ شهور وشهور ... ولكن دعينا منه لا أطيق التحدث عنه ... ذلك الكاتب ! أضاف بشيء من الخيلاء وكأنّـه علـى الأرجح تذكّر الحبكـة المفضّلـة فـي إحدى روايات همنغواي .

ـ ماذا فعل بك ؟

ـ بصراحة ، قال الرجل ، من الأفضل ألاّ أبدأ .

تنـاول سيكارة مـن علبتـه الخاصـة ، دون أن يلتفت إلـى العلبـة الموضوعة على الطاولة وأشعلها بولاعته . كانت يداه كبيرتين . لـم تكونـا تبدوان قويتين بشكل خاص ، ولا بارعتين أو رقيقتين . ومع ذلك فقد كـان يحرّكهما كما لو أنّهما كانتا تمتلكان سطوة جمالية يصعب التحكّم بها .

ـ لقد قررت أن لا أفكّر ثانية في الأمـر ، قـال ، ولكنّنـي لا زلـت غاضباً . إسمعي ، فجأة وصل ذلك الكائن الكريه من ألتكونا في بنسلفانيا ـــ أو شيء من هذا القبيل ـ ، وبدا لي أنّه كان يتضوّر جوعاً ، وكنت متفهماً ولا تنقصني الطيبة ـ السامري الطيّب ، الصريح النسـب ـــ فاستضفته فـي بيتي : شقة منمنمة صغـيرة حتى أكـاد أحسـب أنّهـا لا تتسـع لـي وحـدي .

قدّمته لجميع اصدقائي . تركت له مطلق الحرية في أن يزحم شقتي بمخطوطاته وأعقاب سكائره وزبالته ولم أكن أبالي . عرّفته إلى كل منتجي المسرح في نيويورك . وكنت أحمل قمصانه الوسخة إلى المصبغة وبالعكس . والطامة الكبرى ...

استعاد الرجل الشاب أنفاسه .

ـ وكان جزاء لطفي وتفهمي ، أضاف قائلاً ، أنّه غادر خلسةً هذا الصباح ، بين الخامسة والسادسة دون أن يترك ولو كلمة وحمل معه كل ما وقعت عليه حوافره القذرة .

صمت قليلاً ليأخذ نفساً من سيكارته . ونفث الدخان في سحابة رفيعة ومتطاولة .

ـ هيا ، ولكنّي لا أريد حتى أن آتي على ذكره . لا ، كفى !

رمق جيني بنظرة .

ـ أعجبني معطفك .

قال هذا ونهض عن الكنبة . اجتاز الحجرة وأمسك طرف المعطف بين اصابعه .

ـ إنّه رائع . إنّه أول جلد شاموا من هذه النوعية الجيدة أراه بعد الحرب . هل لي أن أسألك من أين ابتعته ؟

ـ لقد ابتاعته أمي من ناسّو .

فهزّ الرجل رأسه إيجاباً وعاد الى الكنبة .

ـ إنّه أحد الأمكنة النادرة التي لا يزال يتوفّر فيها جلد شاموا من نوعية جيدة .

جلس .

ـ هل مكثت هناك لمدة طويلة ؟

ـ ماذا ؟ قالت جيني .

ـ هل مكثت والدتك في ناسّو طويلاً ؟ أسألك لأنّ أمي مكثت هناك طوال شهر كانون الأول وبعض كانون الثاني . في العادة أنا أرافقها كل عام . ولكن هذه السنة كنت منهمكاً ببعض المشاغل ولم أستطع أن أتغيّب .

ـ كانت هناك في شهر شباط .

ـ مذهل وأين نزلت ؟ أتعلمين ؟

ـ نزلت في ضيافة عمّتي .

هزّ برأسه .

ـ هل لي أن أسألك عن إسمك ؟ أحسب أنّك إحدى صديقات أخت فرانكلين ، أليس كذلك ؟

ـ أنا رفيقة صفها ، قالت جيني دون أن تجيب على القسم الأول من سؤاله .

ـ ألستِ ماكسيم ، الذائعة الصيت ، التي تتحدث عنها سيلينا باستمرار .

ـ لا ، قالت جيني .

وراح الرجل الشاب يفرك مقالب بنطاله براحة كفّه .

ـ ثيابي مليئة بوبر الكلاب من رأسي حتى أخمص قدميّ . لقد رحلت أمي إلى واشنطن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وتركت لي كلبها في شقتي . في الحقيقة إنّه كلب ظريف ولكنّه عديم التربية لدرجةٍ لا توصف . ألديكِ كلب ؟

ـ لا .

ـ صراحة أنا أرى أنّه لمن القسوة بمكان أن يتم احتجاز الكلاب في المدينة .

كفّ عن فرك مقالب بنطاله ، واسترخى في جلسته على الكنبة وألقى نظرة على ساعته .

ـ لم أرَ هذا الصبيّ يوماً دقيقاً في مواعيده . نحن ذاهبان لمشاهدة " الجميلة والوحش " لكوكتو ، هذا الفيلم بالذات ينبغي أن يُشاهد منذ بدايته وإلاّ ، أقصد أن أقول ، وإلاّ فقد سحره . هل شاهدته .

ـ لا :

ـ أوه ، ينبغي أن تشاهديه ، قال . لقد شاهدته ثماني مرّات على التوالي . إنّه العبقرية الخالصة . وها أنذا منذ شهور طويلة أحاول إقناع فرانكلين بمشاهدته .

وهزّ برأسه يائساً .

ـ يا لغرابة أذواقه ! أثناء الحرب كنّا نعمل معاً في المكان الرهيب نفسه ، وكان هذا الصغير يجبرني دائماً على مشاهدة أفلام لا تطاق. أفلام عصابات ورعاة بقر وحتى بعض أفلام الكوميديا الاستعراضيّة!...

ـ كنت تعمل أنت أيضاً في مصنع الطيران ؟ قالت جيني .

ـ بحق السماء ، أجل . لسنوات وسنوات . ولكن دعينا لا نتحدّث عن ذلك ، أرجوكِ .

ـ وهل أنت مريض بالقلب مثله ؟

ـ يا إله السموات ، لا طبعاً ! مسّي الخشب !

نقر نقرتين جامدتين على ذراع الكنبة .

ـ لديَّ جسمُ ...

حين دخلت سيلينا إلى الحجرة نهضت جيني بحيوية وذهبت لملاقاتها . كانت سيلينا قد استبدلت الشورت الذي كانت ترتديه بفستان ، الأمر الذي كان في العادة من شأنه أن يثير حفيظة جيني .

ـ آسفة لأنّني جعلتك تنتظرين ، قالت سيلينا بتهذيب بارد . ولكن كان عليّ أيضاً أن أنتظر حتى تستيقظ الماما ... مرحباً أريك !

ـ مرحباً !

ـ على اية حال لم أعد أريد هذه النقود . قالت جيني بصوت منخفض بحيث لا تسمعها سوى سيلينا .

ـ ماذا ؟

ـ لقد فكرتُ في الأمر . وبأيّة حال ، أنت تفهمين قصدي ، أنت تحضرين الكرات دائماً ، وكل شيء . كنت قد نسيت .

ـ ولكنّك كنت تقولين إنّه بما أنّني لا أدفع ثمنها ...

ـ هلاّ رافقتني إلى الباب ، قالت جيني ، وهي تسبقها دون أن تودّع أريك .

ـ ولكنْ كنت أحسب أنّك ستذهبين إلى السينما هذا المساء كما قلت لي وأنّك في حاجة للنقود ؟ قالت سيلينا حين وصلتا إلى الرواق .

ـ أنا متعبة جداً ، قالت جيني .

انحنت وجمعت حاجيات التنس خاصتها .

ـ إسمعي ، سأتصل بك هاتفياً بعد العشاء . ألديك ما تفعلينه هذا المساء ؟ ربما استطيع أن أمرّ لأراك ؟

نظرت إليها سيلينا باستغراب وقالت حسناً !

فتحت جيني الباب وتوجهتا نحو المصعد . وضغطت على الزر الكهربائي .

ـ لقد قابلت أخاكِ ، قالت .

ـ حقّاً ؟ إنّه صبيّ جيد أليس كذلك ؟

ـ بالمناسبة ماذا يفعل الآن ؟ سألت جيني بشيء من اللامبالاة . هل يعمل أم ماذا ؟

ـ لقد توقّف لتوّه عن العمل . بابا يريده أن يعود إلى الدراسة ولكنّه لا يزال يرفض .

ـ لماذا ؟

ـ لستُ أدري ، يقول إنّه أصبح عجوزاً لمثل هذه الأمور وأشياء من هذا القبيل .

ـ كم عمره ؟

ـ لستُ أدري . أربعة وعشرون عاماً .

فُتحت أبواب المصعد .

ـ سأتصل بك لاحقاً ، قالت جيني .

وحين أصبحت في الخارج هرعت راكضة في اتجاه جادة لكسنغتون لتستقل الباص . وبين الجادة الثالثة وولكسنغتون ، راحت تبحث عن حافظة نقودها في جيب معطفها ووجدت نصف السندويش . فتناولته وأرخت ذراعها لكي تسقطه في الشارع ولكنّها تراجعت عن ذلك وأعادته

إلى جيبها . فمنذ بضع سنوات ، كان عليها أن تتخلص من صوص الفصح الذي وجدته نافقاً في نشارة الخشب في سلّة المهملات ، فاستغرقها ذلك جهد ثلاثة أيام بطولها .

الرجـــل الضـــاحك

عام ١٩٢٨ ـ وكنت في التاسعة آنذاك ـــ انتميت قلباً وقالباً إلى منظمة كانت تُعرف بإسم " منتدى الكومانش ". وكنّا ، نحن ، خمسة وعشرين كومانشيّاً يجمعنا قائدنا كل يوم من أيام الدراسة ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، عند مدخل المدرسة الابتدائية رقم ١٦٥ ، شارع ١٠٩، قرب جادّة أمستردام . وكنّا نصعد متدافعين متغالبين الى الباص القديم الذي حوّله القائد إلى وسيلة نقل تنقلنا إلى سنترال بارك (مقابل اتفاق مالي تدبّره مع الأهل). وكنّا نقضي كل الوقت المتبقّي من بعد الظهيرة ، ونحن نلعب "الركبي " أو كرة القدم أو البايزبول ، حسب ما تسمح به المواسم (وإن ببعض التجاوز). أمّا في الأيام الماطرة فكان القائد يصحبنا دائماً إلى "متحف التاريخ الطبيعي " أو إلى " متحف العاصمة للفنون " .

أيام السبت والأعياد كان القائد يمرّ بمنازلنا صباحاً ويضعنا في باصه الخردة ويقودنا إلى خارج مانهاتن في اتجاه ما كان يبدو لنا فسحاتٍ شاسعة في الهواء الطلق وحديقة فان كورتلند أو باليسّاد . فحين نكون راغبين في مباراة رياضية نذهب إلى حديقة فان كورتلند حيث الملاعب مطابقة للقياسات المتعارف عليها ، وحيث لا يشمل فريق الخصم لا عربات الرضّع ولا العجائز النزقات المسلّحات بعكّازاتهنّ . وحين تغلب ميولنا الكومانشيّة كنّا نذهب إلى باليسّاد حيث نخيّم ، ونتعرّض هناك لبعض التجارب العصيبة ، (أذكر أنّني انتهيت ذات يوم ، في مكان ما من تلك المنطقة الوعرة التي تمتد من يافطة مدخل لينيت حتى الطرف الغربي من جسر واشنطن . إلاّ أنّ ذلك لم يفقدني رباطة جأشي . فجلست تحت يافطة

إعلانية كبيرة ، ومُغنتماً فتحت سلَّة طعامي لأسدَّ رمقي بلقمةٍ شبه موقن بأنَّ القائد سيعثر عليَّ . فقد كان القائد يعثر دائماً علينا) .

عندما كان لا يتولّى رعاية عصبة " الكومانش " ، كان القائد يُدعى جون جدسودسكي من ستاتن آيلاند . شاب في الثانية أو الثالثة والعشرين ، خجول جداً ورقيق جداً ، يدرس الحقوق في جامعة نيويورك ، وكان بصورة عامّة إنساناً يترك في الآخرين انطباعاً يصعب أن يُنسى . ولن أحاول هنا أن أعدّد كل مآثره وكل مزاياه . وأكتفي بالمناسبة أن أشير إلى أنَّه كان قائداً كشفياً ، وأنَّه كاد يُسمَّى نصيف الفرق لكافَّة أميركا عام ١٩٢٦ ، وأنَّه دُعي لمباراة اختبار من قِبَل فريق " عمالقة نيويورك " في لعبة البايزبول . كان الحَكَم الهادئ والعادل في كل نزاعاتنا الرياضيّة ، وخبيراً لا يُضاهى في إضرام النار أو إخمادها، ومسعفاً ذا دراية وتواضع. وكنّا جميعاً من أصغر أزعر فينا حتى أكبرنا ، نحبه ونكنُّ له الاحترام.

لقد حفظت في ذاكرتي صورة واضحة لما كان عليه القائد عام ١٩٢٨ . فلو كانت الأمنيات تقاس بالسنتمترات ، لكنّا ، نحن ، معشر "الكومانش "، جعلناه ، في مخيلتنا عملاقاً في ومضة عين . ولكن بما أنَّ الوقائع هي الوقائع ، فقد كان فتىً ربعاً ، لا تتعدى قامته المتر والستين أو الإثنين والستين على أبعد تقدير . كان شعره شديد السواد حليقاً ، وأنفه عريضاً وضخماً ، أمّا جذعه فكان تقريباً بطول ساقيه . وكانت كتفاه البارزتان تحت سترة الجلد ، قويتين ، ضيقتين ومنحنيتين . ومع ذلك فإن

القائد كان يبدو لي آنذاك وكأنّه يجمع في شخصه معظم ملامح الحُسن التي كنت أراها في صور باك جونز وكن ماينار وطوم ميكس .

في فترات ما بعد الظهيرة ، حين تُعتم السماء فلا يتيح الضوء المتبقي لفريق خاسر تكرار الضربات الحرّة والتجاوزات ، كنّا نحن معشر " الكومانش " ، نستسلم كلياً وبشيء من الأثَرة لموهبة قائدنا في سرد القصص . وكنّا عندئذٍ نتحوّل إلى زمرة متشاحنة وغاضبة للاستيلاء ، بقوّة الساعد أو قذاعة اللسان ، على المقاعد الأقرب إلى القائد في الباص (كان الباص مجهّزاً بصفّين متوازيين من المقاعد المنجّدة ـ وكان الصف الأيسر يحتوي على ثلاث مقاعد إضافية ـ هي أفضل مقاعد الباص ـــ وقد صفّت على أرضية مرتفعة قليلاً إلى جانب السائق) . وكان القائد لا يستقر في مقعده قبل أن يطمئن إلى أنّنا صعدنا جميعاً إلى الباص وجلسنا في مقاعدنا. وعندئذ كان يجلس ، مفرشحاً على مقعده ويبدأ بسرد فصل جديد من "الرجل الضاحك " . وما إن يبدأ بالحكاية حتى يلقى منّا انتباهاً لا يكلّ . فقصّة " الرجل الضاحك " هي القصّة المثالية لاستثارة فضول من ينتمي إلى عصبة " الكومانش " . حتى أنّها كانت تتّخذ أبعاداً كلاسيكية . قصّة تميل للتشعّب في كل منحى ومع ذلك يسهل حفظها . إذ كان في استطاعة واحدنا دوماً أن يحملها معه إلى بيته ليستغرق في تأمل معانيها ، مثلاً ، وهو ممدّد في مياه المغطس .

الرجل الضاحك هو الإبن الوحيد لأبوين ثريين من المُرسَلين خطفه قطّاع طرق صينيون حين كان لا يزال رضيعاً . وإذ يرفض الأبو

(التزاماً بالمبادئ الدينية) دفع فدية إبنهما ، يعمد اللصوص وقد أعماهم الغضب إلى وضع رأس الصغير بين فكّي ملزمة نجّار وشدوا قليلاً ، فكان من ذلك أنّ موضوع هذه التجربة الفريدة وجد نفسه حين بلغ سنّ الرشد برأسٍ أصلع ومستطيل الشكل كالكعكة ، وبثقب بيضوي هائل تحت الأنف بمثابة فم . ولم يكن الأنف نفسه سوى منخرين مسدودين . ولهذا السبب كان هذا الثقب الكريه البشع الذي يحمله الرجل الضاحك تحت أنفه يتمدّد ويتقلّص كلّما تنفّس ـ أو في الأقل ، هكذا أتخيّله ـ وكأنّه محجمة هائلة . (كان القائد ينجح في تقليد تنفّس بطل قصّته أكثر بكثير مما كان ينجح في وصفه). كان الغرباء، إذن، يتساقطون أمواتاً ما إنْ تتبدّى لهم دمامة وجه الرجل الضاحك فيتجنّبه الجميع. إلا أن المستغرب أن اللصوص كانوا يسمحون له بالتجوّل في أرجاء مقرّهم على أن يغطي وجهه بقناع أحمر خفيف مصنوع من ورق خشخاش المنثور. ولم يكن ارتداؤه هذا القناع ليجنّب اللصوص رؤية وجه إبنهم بالتبني فقط، بل كان يتيح لهم أيضاً مراقبة تحركاته عبر رائحة الأفيون القوية التي كانت تفوح منه.

كان الرجل الضاحك، في عزلته القاسية، يتسلّل كل صباح من وكر اللصوص (كانت له مشية الهرّ الرشيقة) ويتوغل في الغابة الكثيفة التي تحيط بالمكان. وهناك كان يوطّد أواصر صداقته مع الحيوانات من كل الأجناس. فئران بيضاء، نسور، أسود، أفاعي البوا العاصرة، ذئاب. لا بل كان ينزع قناعه ويحدّثها بلغتها بصوت شجي ورقيق. ولم تكن الحيوانات ترى أنّه بالغ الدمامة.

(لقد استغرقه الوصول بالحكاية لهذا الحد بضعة أشهر

وانطلاقاً منه بدا القائد أكثر فأكثر إطلاقاً لمخيلته في سـرد التطـورات وهـو الأمر الذي كان يرضي فضول " الكومانش ") .

لم يكـن في الأرجاء من يُـضاهي الرجل الـضاحك في لـصق أذنه بـالأرض وتقـصي الأسـرار، إلا أنه لـم يفـلـح يومـاً في فـضح أسـرار اللصـوص المهنيّة. فهـو، بأيّة حال، لم يكـن يبالي بها وذات يـوم من أيام حسن طالعه، ابتكر لنفسه نظاماً أكثر فعالية.

لقد شـرع فـي البدايـة ، بـالعمل لحسابه الخـاص وإنْ علـى نطـاق ضيّق ، في الأرياف الصينية ، نهباً وتنكيلاً ، وما كـان ليلجـأ إلـى القتـل إلاّ حين يجد نفسه مجبرا على دلك . ولم يمضِ وقت طويـل حتـى جعلت منـه أساليبه الإجراميـة المبتكـرة مقرونـة لديـه بحس الاستقامة الفريـد ، رجـلاً محبوباً من الناس ومقرّباً إلى الأهلين في أرجاء البلاد .

ومع ذلـك فقد حـدث ما هو مـستغرب إذ كـان أقرباؤه بـالتبـني (اللـصوص الذين ربـوه منذ الـبداية عـلى الجريمة) آخـر من رأفت لـهم مآثره. وعندما عرفوه أعمى الحسد قلوبهم. وذات ليلة اقتربوا، الواحد تلو الآخر، من سرير الرجل الضاحك ظنّاً منهم أنّه غارق في سُبات عميق بعد أن سقوه، مخدّراً، وانهالوا على الكتلة المستلقية تحت الأغطية بالسواطير. واتضح فيما بعد أنّ الضحيّة لـم تكن سوى أم زعيم العصابة وهي امرأة شرسـة كريهة وممـاحكة. وبـالطبع لـم يؤد هذا إلاّ الـى تأجيج شـهوة

اللصوص لهدر دم الرجل الضاحك ، ولذلك وجد نفسه مجبراً على حبسهم في حفرة قبرٍ عميقة ولكنّها حسنة الديكور . كانوا يتسللون منها بين حين وآخر ويسبّبون له بعض المتاعب ، إلاّ أنّه كان يمتنع دائماً عن قتلهم . (ولعل جانب الرأفة هذا في شخصيّة الرجل الضاحك هو ما كان يجعلني أفقد صوابي تماماً).

ولم يلبث الرجل الضاحك أن اعتاد اجتياز الحدود الصينيّة دورياً والدخول إلى باريس بفرنسا . وهناك كان يلهو وبتواضع كبير بأنْ يتحدّى بعبقريته الفذّة مارسل دوفارج ، التحري العالمي ذائع الصيت والذي يتميّز بذكاء لا يستهان به وإنْ كان يعاني من أمراض صدريّة . وهكذا أصبح دوفارج وابنته (وهي صبية رائعة الجمال وإنْ كانت مخادعة) العدوّين اللدودين للرجل الضاحك . وكانا من وقت لآخر يستدرجانه إلى بوابة الحديقة . وكان الرجل الضاحك ، شغفاً منه بركوب المخاطر ، يرافقهما حتى منتصف الطريق . قبل أنْ يختفي ، وغالباً ما كان يفعل دون أن يخلّف وراءه ما قد يُعين على إيجاد تفسير مقبول للطريقة التي كان يستخدمها للفرار . كما كان يعمد من حين لآخر إلى إرسال كلمة وداع عبر فتحات المجاري الجوفيّة لمدينة باريس فلا تلبث أن تصل ، على جناح السرعة ، إلى دوفارج . ولذلك كان آل دوفارج يقضون قسماً لا بأس به من الوقت وهم يتخبّطون في أقنية المجاري الجوفيّة لمدينة باريس .

ولم ينقضِ وقت طويل حتى جمع الرجل الضاحك أعظم ثروة يملكها رجل في العالم . فوهب القسم الأوفر منها ، بمثابة مساهمة مُغْفَلة ،

رهبان دير محلي ، وهم من المتزهدين المتواضعين الذين صرفوا أعمارهم في تربية الكلاب البوليسيَّة الألمانيَّة . وابتاع الرجل الضاحك بما تبقّى له من ثروة ألماساً كان يخبئه في طريق عبوره ، في مغارات زمرّد ، في قعر البحر الأسود . كانت احتياجاته الشخصيَّة ضئيلة جداً . وكان طعامه يقتصر على الأرز ودم العقبان ، ويقيم في بيت ريفيّ صغير مجهّز بصالة للتربية البدنيَّة تحت الأرض ، وبصالة لمزاولة ألعاب السلاح ، ويقع عند السفح العاصف للتيبيت . وكان يحيا مع أربعة من الأتباع الأوفياء الخلّص: ذئب بوادٍ ثرثار مكّار يُدعى " الجناح الأسود " ، وقزم رائع إسمه أومبا ، وعملاق منغولي يُدعى هونغ (كان البيض قد أحرقوا لسانه) ، وأوراسيَّة رائعة الجمال كانت تميل أحياناً ، وبدافع حبها ـــ غير المتبادل للأسف ـــ للرجل الضاحك وهاجس أمنها الشخصيّ ، إلى نزعة إجراميّة بغيضة . كان الرجل الضاحك يُبلّغ العصبة أوامره من خلف ستار من الحرير الأسود. ولم يكن لأي من التابعين ، حتى أومبا الرائع ، الحق في رؤية وجهه .

بإمكاني ، ولن أفعل بالطبع ، أن أستدرج القارئ ـ ولو قسراً إن دعت الحاجة ـ لساعات طويلة إثر الروحات والغدوات بين جانبي الحدود الصينية ـ الباريسية . فأنا أعترف بأنّني أرى الى الرجل الضاحك وكأنّه أحد أجدادي العظماء ، شيء من طراز روبرت إ . لي ، إنْ أدركتم قصدي، بعد أن تضفى عليه كل الفضائل المزعومة للشعوذة . ويبدو هذا الوهم نابعاً من مخيّلة عاقلة جداً إذا قارنّاه بذلك الوهم الذي كنت أنمّيه عام ١٩٢٨ ، يوم كنت لا أحسب نفسي فقط سليل الرجل الضاحك مباشرة ، بل

ووريثه الحي الشرعي الوحيد . حتى أنّي لم أكن إبن والديّ ، في عام ١٩٢٨ ، بل كنت مكّاراً شيطانياً مخادعاً ، متربصاً بأقل هفواتهما شأناً لأنتهز ـ من غير عنف إذا أمكن ذلك ، ولكن ليس بالضرورة ـ فرصة إثبات هويتي الحقيقية . ولكي لا أحطّم فؤاد أمي المزعومة ، كنت مصمماً على إشراكها في نشاطي السري ، وأتدبّر لها عملاً غير محدّد لكنّه جوهري بمقدار ما تستحقّه . إلاّ أنّ ما كان في مقدمة مشاغلي آنذاك ، عام ١٩٢٨ ، هو أن أراقب تصرفاتي عن كثب ، أن أتظاهر باللعب ، بغسل أسناني وتسريح شعري ، أن أكتم ، بأي ثمن ، طبعي الضاحك القبيح .

في الحقيقة لم أكن السليل الشرعي والحي الوحيد للرجل الضاحك. كنّا خمسة وعشرين كومانشياً في النادي ، أي كنّا خمسة وعشرين سليلاً شرعياً من الأحياء ، نجوب المدينة خفية بسُحَنٍ متوعّدة ، محدّجين الصبيان، عاملي المصاعد ، بنظرات كأنّهم عدوّنا القاتل المحتمل ، هامسين بطرف شفاهنا أوامر لا تُغفل عنها آذان الكلاب الإنكليزية ، مسدّدين سبّاباتنا نحو جبين مدرّسي الحساب ، منتظرين دائماً الفرصة الملائمة لزرع الرعب والإعجاب في قلوب عامّة الناس .

بعد ظهيرة ذات يوم من أيام شباط ، وكان موسم مباريات البايزبول قد بدأ بالنسبة لعصبة " الكومانش " ، رأيت شيئاً جديداً معلقاً في باص القائد : صورة مُقرّضة الجوانب أُلصقت فوق المرآة العاكسة على الدرّاءة ، لفتاة ترتدي الزّي الجامعي . وبدا لي أنّ صورة الفتاة تتنافر مع الزينة الذكريّة للباص ، وسألت القائد بإلحاح عمّن تكون . فاستوضح

سؤالي في البداية ثم أقرّ أخيراً بأنّها فتاة . فسألته عن إسمها . فأجاب مبدياً ضيقه : " ماري هودسون " وسألت عمّا إذا كانت تعمل في السينما أو أي شيء من هذا القبيل . فقال لا ، إنّها طالبة في كليّة ويللزلي . وأضاف ، بعد تفكير طويل ، أنّ كليّة ويللزلي تُعتبر مؤسسة لخاصة النخبة . وسألته لماذا ، على أية حال ، ألصق صورتها على درّاعة الباص . هزّ كتفيه كما لو أنّه يود أن يقول ، على ما فهمت ، إنّ الصورة قد فُرِضت عليه بطريقةٍ أو بأخرى .

وخلال الأسبوعين التاليين ، سواء أكانت مفروضةً عليه أم لا ، لم ترفع الصورة عن درّاعة الباص . ولم تختفِ مع ورق التغليف بايبي روث وأعواد السكائر . وانتهى بنا الأمر ، نحن معشر " الكومانش " ، بأن اعتدنا عليها وسرعان ما غابت عن أذهاننا وما عدنا نهتم إلاّ بالإنتباه إلى مؤشر السرعات .

ذات يوم وفيما كنّا في طريقنا إلى الحديقة ، أوقف القائد الباص فجأة بمحاذاة رصيف الجادّة الخامسة ، بالقرب من الشارع الستين ، وعلى بعد اقل من كيلومتر واحد عن ملعب البايزبول . تعالت أصوات نحو عشرين راكباً من المقاعد الخلفيّة تطالب القائد بتبرير مثل هذا التوقف ، ولكنّ القائد لم يقدّم أي تفسير . بل اتّخذ ببساطة وضعيّة الراوي مفرشحاً ، وراح يروي ، قبل الموعد المعتاد بساعتين ، فصلاً جديداً من الرجل الضاحك . وما كاد يهمّ بذلك حتى سُمِعَ طرقٌ على زجاج الباب . كان

القائد يومذاك متنبّهاً سريع الاستجابة ، فنهض واثباً من مقعده ، وأدار قبضة الباب فصعدت إلى الباص فتاة ترتدي معطفاً من فرو القندس .

بالإجمال ، لا أذكر ، في حياتي كلّها ، سوى ثلاث فتيات لفتني جمالهنّ الباهر الذي لا يُضاهى من النظرة الأولى . الأولى فتاة نحيلة بمايوه أسود كانت تُعاني كثيراً من عجزها عن غرز عصا المظلة البرتقالية في الرمل ، في جونز بيتش ، حوالي العام ١٩٣٦ . والثانية كانت فتاة على متن قارب خلال رحلة بحرية بين جزر الكاريبي ، وأذكر أنّها رمت ولاّعتها إلى خنزير بحري . والثالثة كانت صديقة القائد ، ماري هودسون.

ـ لقد تأخّرتُ كثيراً ، أليس كذلك ؟

سألت القائد بابتسام .

وكانت لتسأل أيضاً عمّا إذا كانت تبدو دميمة المظهر .

ـ آه ، لا ! قال القائد .

وبشيء من العصبيّة نظر إلى الكومانشيين الجالسين بقربه وأشار إلى الصف الأقرب بأن يفسحوا لها مكاناً . جلست ماري هودسون بيني وبين صبيّ يدعى إدغار كذا ، لم أعد اذكر ، وكان عم إدغار هذا صديقاً مقرّباً لأحد مهرّبي الكحول . فأفسحنا لها ما تشتهي من مكان وأكثر . اقلع القائد بانحرافٍ لا يرتكبه دعيٌّ حديث العهد في قيادة السيارات . وكان الكومانشيون ، أولهم كمثل أخيرهم ، يلزمون الصمت .

وبينما كنّا في طريق عودتنا إلى حيث يركن الباص عادة ، دنت ماري هودسون من القائد وقد انحنت على مقعده وروت له بحماسة بالغة قصّة كل القطارات التي فاتتها والقطار الذي لم يفتها . كانت تقطن في دوغلاستن آيلند . وكان القائد شديد العصبيّة ، لا يكاد يفتح فمه ويسمع بالكاد ما تقوله . وأذكر أنّه كان مرتبكاً في تغيير السرعات .

عندما ترجّلنا من الباص ، لحقت بنا ماري هودسون . وأنا واثق الآن أنّ العبارة التي كانت ترتسم على وجوه كافّة الكومانشيين ، ونحن في طريقنا إلى ملعب البايزبول ، هي عبارة ألا ـ تفهم ـ إذاً ـ هذه ـ الفتاة ـ متى ـ ينبغي ـ أن ـ تعود ـ إلى منزلها . وما زاد في الطين بلّة أخيراً وفيما كنّا نحتكم ، أنا وكومانشي آخر ، إلى لعبة القفا أو الوجه لاختيار الفريق الذي سيفتتح اللعب ، أعلنت ماري هودسون بنبرة تحبب أنّها تود أن تلعب معنا . فلم نُحِر جواباً أبلغ من صمتنا المطبق . فإذا كنّا حتى تلك اللحظة لا نبدي سوى دهشتنا حيال وجود فتاة بيننا ، فقد أصبحنا نحدجها بنظرات ازورار . جبّهتنا بابتسامتها . وبدا الأمر مثيراً للحَرَج . وعندئذٍ تدخّل القائد مبدياً لنا أنّه إذا آثر الصمت طوال اللحظات السابقة فهذا لا يعني أنّه عاجز عن التمييز بين من هو كفءٌ ومن ليس بكفء . وانتحى بماري هودسون جانباً وبعيداً عن مسامعنا وبدا أنّه يحاول أن يقنعها بهدوء. وفي آخر الأمر ، قاطعته ماري هودسون وترامى صوتها إلى مسامعنا :

ـ ولكنّي أريد ! قالت . أنا أيضاً أريد أن ألعب !

هزّ القائد برأسه وحاول مجدّداً . وسدّد سبّابته في اتجاه الملعب الذي تجمّعت فيه نُقَحُ الماء والحفر . وتناول أحد المضارب ليريها كم هو ثقيل .

ـ سيّان عندي ، قالت ماري هودسون بصوتٍ عالٍ . لقد قطعت كل المسافة حتى نيويورك ، وقصدت عيادة طبيب الأسنان وكل شيء . وسألعب .

هزّ القائد برأسه مرّة أخرى وأطرق . ثم عاد بخطى متباطئة إلى نقطة التجمّع حيث كان " الشجعان " و " المحاربون " ـ فريقا عصبة "الكومانش " ـ ينتظرون . نظر إليّ . لقد كنت رئيس فريق " المحاربين " . ذكر إسم لاعب قلب الهجوم في فريقي الذي تغيّب لأسباب مرضيّة واقترح عليّ أن تحلّ ماري هودسون محله . وسألني القائد من أين ، بحق السماء، ابتدعتُ هذا إذ أجبته بأنّني لست في حاجة إلى لاعب قلب الهجوم. صُعقتُ. فقد كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها القائد يتلفّظ بمثل هذا الكلام . وما زاد من ذهولي وإحساسي بأنّ ماري هودسون كانت ترمقني بنظراتها مبتسمة . ولشدّة غيظي ، التقطت حجراً ورميت به شجرة .

الفريق الآخر هو الذي افتتح المباراة ولم تستدعِ ضربة الإرسال الأولى أي تحرك في وسط الملعب . ومن حيث كنت واقفاً ، عند خط الزاوية الأول ، لم أكف ، بين حين وآخر ، عن إلقاء نظرة خاطفة إلى الوراء . وفي كل مرّة كانت ماري هودسون تلوّح لي بذراعها تلويحة ابتهاج . كانت ترتدي قفازاً ضخماً اختارته بحسب قلبها . لقد كان منظراً فظيعاً .

كان من المفترض ، من جهة فريق " المحاربين " أن تتولى ماري هودسون ضربة الإرسال في المرحلة التاسعة . وعندما أطلعتها على الأمر ، بدت غير راضية وقالت :" حسناً إذاً ، ضاعفوا سرعة حركتكم !" والأدهى هو أنّنا ضاعفنا سرعة حركتنا . كان لها أن تتولّى ضربة الإرسال في المرحلة الأولى . وللمناسبة ، خلعت الفرو وقفازها الضخم ووقفت في الموضع المحدَّد في ثوبها الداكن . وعندما ناولتها المضرب سألتني لماذا هو ثقيل هكذا . غادر القائد موقعه كحكم خلف رامي الكرة واقترب بادي القلق . وقال لماري هودسون أن تسند طرف المضرب إلى كتفها اليمنى .

ـ ولكن هذا ما أفعله بالضبط ، قالت .

قال لها أن تشد قبضتها كثيراً على المضرب .

ـ أنا أفعل ، قالت . ابتعد من أمامي .

صفق الهواء عنيفاً حين تلقّت الكرة الأولى بضربة رمتها إلى أعلى ومرّت فوق رأس لاعب اليسار . كانت ضربة موفّقة تتيح ، في العادة ، الركض حتى الزاوية الثانية ولكنّ ماري هودسون وصلت إلى الزاوية الثالثة دون أن تزلّ قدمها .

بعد أن تمالكت ذهولي ، ثم إعجابي ، ثم بهجتي ، نظرت إلى القائد الذي زالت عنه سُحنة المطوّف خلف الرامي . وبدا لي رجلاً في أوج السعادة . من الزاوية الثالثة أشارت ماري هودسون لي بيدها . فبادلتها بالمثل . لم استطع أن أتمالك نفسي حتى لو تعمّدت ذلك . فعلاوة على

حسن استخدامها للمضرب كانت فتاة تعرف جيداً كيف تشير بيدها إلى أحد ما من الزاوية الثالثة .

خلال ما تبقّى من المباراة كانت تصل إلى الزاوية الثالثة كلّما تولّت ضربة للإرسال . وبدا ، لسبب أو لآخر ، أنّها تكره الزاوية الأولى . ولم يكن في المستطاع إجبارها على البقاء هناك . لثلاث مرّات على الأقل، تسلّلت إلى الثانية .

ما عدا ذلك كانت طريقة لعبها كأسوأ ما يكون اللعب ، إلاّ أنّ عدد النقاط التي كانت تسجّل لصالحنا وقت إرسالها كانت تجعلنا لانعير الأمر انتباهاً خاصاً . وأحسب أنّه كان من الأفضل بكثير لو أنّها كانت تقبل بملاحقة الكرات كيفما شاءت ولكن دون أن تكون مرتدية قفاز بايزبول . غير أنّها كانت تصر على الاحتفاظ به وتقول إنّه ظريف .

خلال الأشهر التالية ، واظبت على الاشتراك في مباريات "الكومانش " مرّتين في الأسبوع (والأغلب أنّها كانت تفعل عندما يكون لديها موعد في عيادة طبيب الأسنان). وأحياناً كانت تصل قبل انطلاق الباص وأحياناً أخرى تتأخّر على موعده . أحياناً كانت طوال الرحلة لا تكفّ لحظة واحدة عن الكلام ، وأحياناً أخرى كانت تلبث جالسة لا تنطق بكلمة واحدة وتدخّن سكائر هربرت تاريتون (المفلترة) . وكان من يجلس بجانبها في الباص لا يستطيع إلاّ أن يحس برائحتها الشهيّة الطيبة .

ذات يوم عاصف من ايام نيسان ، مرّ القائد وأقلّنا كالمعتاد عند الثالثة من تقاطع الشارع ١٠٩ وجادّة أمستردام ، وبعد أن انعطف يُمنة في اتجاه الشارع ١١٠ ، تابع سيره المعتاد في اتجاه الجادّة الخامسة . إلاّ أنّه كان قد بلّل شعره قبل تسريحه ، وارتدى معطفاً بدلاً من سترته الجلد ، وكان في استطاعتي أن أراهن ، دون حظ كبير بالخسارة ، أنّ ماري هودسون ستنضم إلينا . وعندما تجاوزنا بسرعة خاطفة مدخل الحديقة العموميّة الذي نسلكه عادةً ، أيقنت من أنّني على حق . أوقف القائد الباص على جاري عادته في المناسبات المماثلة عند زاوية الشارع ٦٠ ، ولتمضية الوقت جلس مفرشحاً على مقعده وشرع في رواية فصل جديد من " الرجل الضاحك ".أنا أذكر هذا الفصل في أدقّ تفاصيله وسأحاول أن ألخّصه لكم.

لقد شاء سوء طالع المصادفات أن يقع أوفى أصدقاء الرجل الضاحك ، أي ذئبه " الجناح الأسود " في فخّ ماديّ وذهنيّ في وقتٍ معاً ، دبّره له دوفارج وابنته . وبما أنّ دوفارج وابنته كانا يعرفان جيداً أريحيّة الرجل الضاحك وحسّه بالواجب ، اقترحا عليه أن يستسلم لهما مقابل الإفراج عن " الجناح الأسود " . قَبِلَ الرجل الضاحك بطيبة خاطر نادرة اقتراحهما (إذ كانت بعض الوظائف الثانويّة في نبوغه عرضة لبعض لحظات الوهن التي لا يعرف مصدرها). وتم الاتفاق على أن يُلاقي الرجل الضاحك دوفارج وابنته عند منتصف الليل في مكان ما في الغابة الكثيفة التي تحوط مدينة باريس ، حيث سيعمدان إلى إطلاق سراح " الجناح الأسود " في ضوء القمر . سوى أنّ دوفارج وابنته لم يكونا عازمين على إطلاق سراح " الجناح الأسود " الذي كانا يخشيانه ويمقتانه . وفي الليلة

المحدّدة للتبادل ربطا بدلاً منه ذئباً آخر كانا قد طليا بالأبيض قائمته الخلفيَّة اليسرى كي يصبح شبيهاً بالجناح الأسود .

غير أنّ ثمَّة أمرين لم يتوقعهما دوفارج وابنته : رهافة حسّ الرجل الضاحك ومعرفته لغة الذئاب . فما أن سمح لابنة دوفارج بأنْ توثقه إلى شجرة بواسطة شريط شائك ، أراد الرجل الضاحك أن يوجّه بصوته العذب بعض كلمات الوداع لما كان يفترض أنّه صديقه الحميم . ولم يلبث الصديق الزائف الذي كان لا يبعد عنه سوى بضعة أمتار تحت ضياء القمر ، أن تأثّر لموقف هذا الغريب الذي يجيد لغته إجادة تامَّة ، وأصغى بتهذيبٍ ، لثوانٍ قليلة ، إلى وصاياه الأخيرة ، الشخصيَّة منها والمهنيَّة . إلاّ أنّ صبره نفذ في آخر الأمر وراح يتخطّر بثقله من قائمة إلى أخرى . وفجأة قاطع الرجل الضاحك ، بشيء من قلّة التهذيب حتى ، وقال له أولاً إنّ إسمه ليس " الجناح الداكن " أو " الجناح الأسود " أو " ذا القوائم الرماديّة " أو أيّاً كان من مثل هذه الترهات ، فهو يدعى آرمان ، وثانياً إنّه لم يذهب في حياته كلّها إلى الصين وليس في نيّته أن يذهب إليها قط .

أما الرجل الضاحك وقد جنّ جنونه من الغيظ ، فقد أسقط القناع عن وجهه مستخدماً لسانه وكشف لدوفارج وابنته عن وجهه العاري في ضوء القمر . ووقعت الآنسة دوفارج مغشياً عليها . أمّا والدها فكان أوفر حظاً . إذ لم يشهد وقد انتابته ، لحسن طالعه ، نوبة سعال ، مشهد سقوط القناع القاتل . وعندما كفّت نوبة السعال ورأى ابنته ممدّدة على الأرض ، في ضوء القمر ، تجمّدت الدماء في عروقه . ولم يلبث أن غطّى عينيه بيده

وأفرغ رصاصات مسدسه الأوتوماتيكي في اتجاه تنفُّس الرجل الضاحك المتقطّع الصافر .

وكانت هذه خاتمة الفصل .

تناول القائد ساعته الإنجرسول التي تباع واحدتها بدولار واحد ، من جيبه ، وألقى نظرة خاطفة عليها ، ثم لم يلبث أن استدار في جلسته وأدار المحرّك . نظرتُ إلى ساعتي . كانت الساعة تقارب الرابعة والنصف . وما أن أقلع الباص سألت القائد عمّا إذا كان في انتظار ماري هودسون . فلم يجب . وقبل أن يُتاح لي سؤاله مجدّداً ، ألقى برأسه إلى الخلف وصرخ في اتجاهنا :

ـ بعض الهدوء ، أنتم هناك ، بحق السماء !

ومهما يكن من أمر العبارات التي استخدمها ، فإنّ ملاحظته هذه جاءت في غير محلها . فقد كان الصمت مطبقاً في الباص منذ بعض الوقت. إذ كان معظمنا لا يزال مستغرقاً في التفكير في موقف الرجل الضاحك حيث انقطعت الحكاية . صحيح أنّنا كنّا قد تجاوزنا مرحلة الانشغال بالقلق عليه . فقد كانت ثقتنا به على هذا الصعيد أكبر من أن تهون ـــ، ولكنّنا لم نكن قد توصلنا بعد إلى مرحلة التعوّد ـــ دون انفعال ـــ على الأخطار الكبيرة التي تحدق بمصيره .

عند ضربة الإرسال الثالثة أو الرابعة من المباراة ، في تلك الظهيرة ، لمحت بغتة ماري هودسون من موقعي عند الزاوية الأولى . كانت جالسة على مقعد على بعد مئة متر تقريباً إلى يساري ، بين مربيتين مصحوبتين بعربتي أطفال . كانت ترتدي معطفها الفرو وتدخّن سيكارة ، وبدت لي مستغرقة في متابعة المباراة . فما كان منّي ، وقد ألهبتني الحماسة لهذا الاكتشاف ، إلاّ أن صرخت لإبلاغ القائد الواقف خلف الرامي. فاقترب بخطوات متسارعة ولكنْ دون هَرَع .

ـ أين ؟ سألني .

فأشرت إلى المكان . فنظر إلى حيث أشرتُ بنظرات ثابتة ثم قال إنّه لن يطيل غيابه وغادر الملعب . مشى نحوها بخطوات متباطئة ، معطفه غير مزرّر وقد دسّ يديه في الجيبين الأفقيين لبنطاله . جلست عند الزاوية الأولى ورحت أراقبهما . قبل أن يصل إلى محاذاة ماري هودسون زرّر القائد معطفه وتقدّم نحوها وقد أرخى ذراعيه إلى جنبيه .

وقف قبالتها لخمس دقائق . وبدا أنّه يتحدّث إليها . ثم نهضت ماري هودسون واقتربا في اتجاه ملعب البايزبول . لم يتبادلا الكلام أثناء سيرهما . ولم يتبادلا النظرات . وعندما وصلا إلى الملعب ، عاد القائد إلى موقعه خلف الرامي . فصرخت اسأله :

ـ هل تلعب ؟

قال لي أن أطبق فمي . فأطبقته ورمقتُ ماري هودسون . مرّت متباطئة خلف المُرسلين وقد دسّت يديها في جيبيّ معطفها الفرو ، ثم ذهبت

في آخر الأمر وجلست على أحد المقاعد المخصّصة للاعبي البدل ، خلف الزاوية الثالثة . أشعلت سيكارة أخرى وشبكت ساقيها .

عندما انتقل الإرسال إلى فريق " المحاربين " ذهبتُ إليها حيث كانت جالسة وسألتها عمّا إذا كانت تود أن تنضم إلى الفريق كلاعب الميسرة ، فهزّت برأسها . سألتها عمّا إذا كانت مصابة بزكام ، فهزّت برأسها . وقلت لها إني في حاجة للاعب ميسرة . قلت لها إنّ اللاعب نفسه يقوم بدور قلب الهجوم ولاعب الميسرة . فلم أحظ بجواب . رميت قفّازي كلاعب زاوية أولى إلى أعلى وحاولت أن أتلقّفه برأسي ولكنّه سقط في نقحة مياه موحلة ، فمسحته ببنطالي وسألت ماري هودسون عمّا إذا كانت ترغب ذات يوم في زيارتنا وتناول طعام العشاء على مائدتنا . وقلت لها إنّ القائد غالباً ما يفعل .

ـ دعني وشأني ، قالت . أرجوك . دعني وشأني .

رمقتها بنظرة استهجان ثم مشيت نحو مقاعد " المحاربين " وقد تناولت ليمونة يوسفيّ من جيبي ورحت أتقاذفها بيدي . وفي منتصف المسافة ، عند خط الجزاء للزاوية الثالثة ، استدرت ورحت أمشي القهقري، محدّقاً بماري هودسون والليمونة في يدي .لم تكن لديّ أي فكرة عمّا يدور بين القائد وماري هودسون (وما زلت حتى اليوم لا أعرف ، أو في الأقل، ليست لديّ سوى فكرة غائمة حول الموضوع)، ولكنّني أدركت ، منذ تلك اللحظة ، أنّ ماري هودسون قد هجرت ، وإلى الأبد ، قبيلة " الكومانش ". وكان إدراكي هذا من نوع اليقين الذي يجعل ، وبصرف النظر عن اعتبار

آخر ، مـن سير القهقرى تمريناً معرّضاً لأي طـارئ ، فتعثّرت ووقعت جالساً في عربة طفل كانت هناك .

عندما انتقل الإرسال مجدّداً إلى فريق " المحاربين "، كانت قد أظلمت بحيث أصبح اللعب متعذّراً . فعلّقت المباراة وبدأ جمع الأدوات . وآخر ما أذكره من ماري هودسون هو صورة فتاة تنتحب قرب الزاوية الثالثة . أمسكها القائد بكمّ معطفها الفرو ولكنّها أبعدته عنها ، وهرعت راكضة خارج الملعب ثم سلكت الممر المبلّط وواصلت ركضها حتى غابت عن ناظري . لم يلحق القائد بها . بل لبث هناك ، ببساطة ، واقفاً وهي تغيب عن ناظريه . ثم استدار نصف دورة وعاد أدراجه إلى الملعب ليحمل المضربين خاصتنا . فقد كنّا دائماً نترك له حمل المضربين . لحقت به وسألته عمّا إذا كان هو وماري هودسون قد تخاصما . فقال لي أن لا أحشر أنفي في ما لا يعنيني .

على جاري عادتنا ، نحن معشر " الكومانش "، قطعنا آخر خمسين متراً من المسافة التي تفصلنا عن الباص ، متراكضين، صاخبين متدافعين نتبادل الركل والمغالبة ، متوفزي الحواس لأنّ وقت " الرجل الضاحك " قد حان مجدّداً .أثناء اجتيازنا للجادّة الخامسة أوقع احدنا كنزته الصوف فتعثّرت بها ووقعت أرضاً . بعد ذلك حاولت أقصى ما في وسعي لأكون من بين أول الواصلين إلى الباص ولكن عبثاً ، فقد احتلّ الآخرون أفضل الأمكنة وكان عليّ أن أجلس في أحد مقاعد الوسط . ولكي أعبّر عن استيائي مما آلت إليه الأمور لكزت رفيقي بضربة من مرفقي الأيمن

وألقيت نظرة من حولي ورافقت عيناي القائد الذي كان يجتاز الجادّة الخامسة . لم يكن الليل قد حلّ بعد ، بل العتمة الخجولة للساعة الخامسة والربع . اجتاز القائد الرصيف ، كان رفع ياقة معطفه ودسّ المضربين تحت إبطه اليسرى ، وكانت نظراته ساهية في مدى الجادّة المفتوح . حتى شعره الأسود الذي كان بلّله قبل بضع ساعات ليسرّحه ، أصبح جافاً ومشعّثاً . وأذكر أنّني وددت حينذاك لو كان القائد يرتدي قفّازين .

حين صعد القائد إلى الباص كان الصمت فيه مطبقاً كالعادة ــ أو على الأقل كان يسوده صمت اشبه بصمت المسارح حين تطفأ الأنوار ــ. ولم تلبث الأحاديث أن تحوّلت إلى وشوشات مقتضبة أو كتمت على الفور. ومع ذلك فإنّ أول ما نطق به القائد كان :

ــ هيّا ، كفّوا عن الضجيج هناك ! وإلاّ لن أكمل الحكاية .

وفي الحال اتخذ جميع من في الباص هيئة الأصنام . ولم يجد القائد بعد ذلك مفراً من اتخاذ وضعيّة الراوي . وما إنّ كان له ذلك حتى أخرج منديلاً من جيبه وتمخّط بعناية ونهج ، منخراً بعد الآخر ، كنّا نراقبه يفعل بنفاذ صبر لا بل ، في حدودٍ ما ، ببعض الاهتمام . حين انتهى من فعلته طوى المنديل أربع مرّات وأعاده إلى جيبه . وأخيراً منّ بالفصل الجديد من " الرجل الضاحك " فلم يستغرقه ذلك من البداية وحتى النهاية ، سوى خمس دقائق .

أربع من رصاصات دوفارج أصابت " الرجل الضاحك "، ومنها اثنتان أصابتا قلبه . وعندما سمع دوفارج الذي لم يرفع يده عن عينيه لكي

لا يرى " الرجل الضاحك " ، حشرجة ألم وامتضار من الناحية التي استهدفها برصاصاته شعر بفرحة غامرة . فهرع متمالكاً ضربات قلبه اللئيم لإسعاف ابنته . وعندها فقط واتتهما الجرأة على النظر إلى " الرجل الضاحك " بمزيج من فرحة اللئام وشجاعة الجبناء . كان رأسه متدلياً كرأس ميّت وقد لامس ذقنه صدره المدمّى . فدنا الأب والإبنة بشغف واضح وإبطاء لتأمّل ما اقترفته أيديهما . وهناك كانت المفاجأة في انتظارهما . فالرجل الضاحك لم يمت ، بل كان مستغرقاً في جهده لقبض عضلات معدته بطريقة غامضة . وما إن اقترب منه دوفارج وابنته رفع رأسه بغتة وأطلّت ضحكة مرعبة ودون أدنى جهد منه ، بل وباسترخاء كامل ، بصق الرصاصات التي أصابته واحدة تلو الأخرى . ولهول الصدمة التي تلقّاها دوفارج وابنته انفجر قلباهما على الفور ، وسقطا جثّتين هامدتين عند قدميّ " الرجل الضاحك " . (كان في استطاعة القائد الذي أراد هذا الفصل قصيراً أن ينهي الحكاية عند هذا الحد . وكان من شأن الكومانشيين أن يتدبّروا لأنفسهم تفسيراً عقلانياً لموت دوفارج وابنته الصاعق . ولكنّه لم ينهِ الحكاية عند هذا الحد).

لبث " الرجل الضاحك " ، طيلة أيام وأيام ، مقيّداً بالشجرة بواسطة الشريط الشائك ، وكانت جثّتا دوفارج وابنته تتحلّلان أمام ناظريه. وكان في حالة من الإنهاك لم يسبق أن أصابته من قبل لفرط ما نزفت جراحه وانقطاع قوته من دم العقبان . ومع ذلك نادى ذات يوم ، بصوته المحتضر الذي لم يفقد فصاحته ، حيوانات الغابة لمساعدته . وطلب منها أن تذهب لإحضار أومبا القزم الرائع . ففعلت . إلاّ أنّ المسافة بين الحدود

الصينيّة الباريسيّة كانت شاسعة ولم يصل أومبا حاملاً حقيبة الإسعاف ومؤن دم العقبان إلاّ بعد أن أصيب " الرجل الضاحك " بغيبوبة عميقة . وكان أول ما فعله أومبا إشفاقاً هو التقاطه لقناع سيده الذي قذفته الرياح فغطّى صدر الآنسة دوفارج المتحلّل الذي تنخره الديدان . فوضعه مجدداً على السُحنة الدميمة وضمّد له جراحه .

عندما استيقظ " الرجل الضاحك " أخيراً من غيبوبته ، سارع أومبا إلى رفع قارورة دم العقبان بمحاذاة القناع ولكنّ " الرجل الضاحك " لم يشرب منها . وبدل أن يشرب تمتم بوهن إسم صديقه المحبوب " الجناح الأسود " . فأجاب أومبا وقد أطرق قليلاً برأسه المشوّه ، أنّ دوفارج وابنته قد عمدا إلى قتل " الجناح الأسود ".

كان ذلك ، في روع " الرجل الضاحك " ، بمثابة أعظم ما يكون الأسى . فأطلق زفرة كأنّها حشرجة الموت . وبحزن بالغ تناول قارورة دم العقبان وحطّمها في راحة يده ، فسال الدم القليل الذي تبقّى فيها كسوار رقيق حول معصمه . أمَرَ أومبا بأن يمتنع عن النظر إليه ، فأطاع أومبا سيّده منتحباً . وكان آخر ما فعله " الرجل الضاحك" قبل أن يدفن وجهه في التراب هو نزع القناع عن وجهه .

انتهت الحكاية عند هذا الحد (وبالطبع لم تستكمل أبداً). أدار القائد محرّك الباص . وفي صف المقاعد حيث كنت جالساً راح بيلي والش، الكومانشي الصغير ، ينتحب بصوت عال . لم يقل له أحد منّا أن يصمت. أمّا أنا فأذكر أنّ ارتعاشة كانت ترّج ركبتيّ .

بعد وقت قليل ، كان أول ما وقعت عليه عينـاي ، عندمـا ترجّلت من باص القائد ، قصاصة مـن ورق الحريـر الأحمـر ألصقتهـا الريـح علـى قاعدة مصباح كهربائي ، ويحسب من رآها أنّها قنـاع أحـد مـا صنعت مـن وريقات خشخاش المنثور . عـدتُ إلـى البيـت مرتعداً تصطـكُّ أسـناني فـلا أتمالكها ، فأرسلوني تواً إلى السرير .

فهرس

ولد **جيروم دايفيد سالنجر** في نيويورك عام ١٩١٩، ولم تلبث أن طارت شهرته كأحد أبرز الروائيين والقصّاصين الأميركيين منذ عام ١٩٤٨ عندما نشرت له مجلّة «النيويوركر» قصّته: «اليوم المرتجى لسمك الموز» التي تبعتها أعمال عدّت من بين أفضل ما قدّمه الأدب الأميركي في فترة ما بعد الحرب الثانية: «الحارس في حقل الشوفان»، «فراني وزووي»، «إرفعوا المنصّة عالياً، أيها النجارون» و «سيمور، مقدمة».

توقّف عن الكتابة منذ أواسط الستينات واعتزل العالم والأضواء في أحد الأرياف الأميركية البعيدة.